عباس محمود العقادمن خلال سيرته الذاتية "أنا":

دراسة تحليلية

(Abbas Mahmood Al-Aqqad Through His Autobiography "ANA"

An Analytical Study)

بحث جامعى لنيل الشهادة ما قبل الدكتوراة

الباحث

محمد أمير الحسن

تحت إشراف

الدكتور محمد قطب الدين

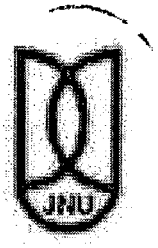

مركز الدراسات العربية و الإفريقية

مدرسة الدراسات اللغوية و الأدبية و الثقافية

جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، بالهند.

110067

2010

مركز الدراسات العربية و الإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi – 110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067

DECLARATION

I declare that material in this dissertation entitled ***" Abbas Mahmood Al-Aqqad Through His Autobiography "ANA" An Analytical Study "*** submitted by me is an original research work and has not been previously submitted for any other degree of this or any other University/ Institution .

Md. Amirul Hasan
(Research Scholar)

SUPERVISOR 26/7/10
Dr. Md. Qutbuddin
CAAS/SLL&CS/JNU

Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

CHAIRPERSON
Prof.M. Aslam Islahi
CAAS/SLL/&CS/JNU

Chairperson
Centre of Arabic & African Studies
School of Languages
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

Gram: JAYENU Tel.: 2670 4253 Fax: 91-11-2671 7525

مقدمة البحث

أتشرف بتقديم هذه الأوراق لنيل الشهادة ما قبل الدكتوراة وفي الحقيقة هي ثمرة أتعابي الشاقة وجهودي المضنية التي استغرقت مني سنة كاملة أو أكثر قضيتها في دراسة "أنا" للأستاذ عباس محمود العقاد وطالعت الكتب الأخري التي تتعلق بالسيرة الذاتية وتابعت بدقة وإمعان "أنا" تحت إرشادات أستاذي ومشرفي الدكتورمحمد قطب الدين، وقد وجدت هذا الكتاب يشتمل على أحداث ووقائع لجميع مراحل حياة الأستاذ قد دون فيه عباس محمود العقاد تجاربه بمنتهي الوضوح والدقة والتبيان، ومن هنا "أنا" لايزال يعتبر أفضل كتاب لعباس محمود العقاد، إن هذا الكتاب ليس بكتاب عادي فهو يختلف عما كتبه الكثيرون من رجال الفكر والأدب والاجتماع عن حياتهم، فبعض هولاء العلماء والأدباء والساسة ترجم لحياته في أسلوب تاريخي وبعضهم في صيغة المذكرات أو ذكريات،وآخرون صوروا حياتهم فيما يشبه الاعترافات مع الاكتفاء بالأهم والمهم من الأحداث وأدوارهم فيها، أما هذا الكتاب للعقاد عن نفسه فهو كتاب له طابع جديد في كتابة التراجم،وكتابتة عن نفسه ليست عبارة عن تصويرشخصية بحتة ولاسرد الأحداث التي مرت به أو عاش فيها وكان له دور من أدوارها فحسب، بل كتابة باحث عالم وفنان نابغ، تعودالنظر في مسائل العلم وقضايا الفن والفكر، وجال في شئون الفلسفة وعلم النفس والأدب والتربية والاجتماع، وتمرس بتجارب الحياة، ومارس حلوها ومرها وخرج منها بخبرة العالم وعبرة المفكر وحكمة الفيلسوف، فإذا كتب عن نفسه تناول ألوانا من

المعرفة وعالج ألوانا من التفكير وتعقب كل حادث أو شأن من الشئون بالتعقيب العلمي أو التعليل النفسي أو التأمل الفلسفي.

وتجمع آراء النقاد على أن " أنا " هو من أمتع ما كتبه عباس محمود العقاد بأسلوب أدبي علمي رشيق وأجمل ما في الكتاب هو صراحته البسيطة غير المتكلفة، نظرا لهذه الميزات البارزة لـــ" أنا" اخترت هذا الموضوع أي عباس محمود العقاد سيرته الذاتية بتوجيه كتابه "أنا" – دراسة تحليلة– وقدمت بحثي هذا بعد الدراسة والتحليل لكتابه "أنا".

ومما لاشك فيه أن هذا الموضوع الذي قد تناولته للبحث هو موضوع هام جدا، نظرا لأهمية الموضوع كنت أتوقع أن المواد المتعلقة بهذا الموضوع عسي أن تكون متوفرة في المكتبات الهندية إلا أن آمالى قد خابت إذ لم أجد مصادر ومراجع متوفرة بصورة كافية ومن هنا قد واجهت مشاكل وصعوبات كثيرة في انجاز هذا البحث المهم ولم استطع أن أودي حق البحث كما ينبغي ومع هذا كله قد بذلت قصاري جهدي لتقديم عصارة بحثي في أحسن صورة وأسلوب مستمدا من المصادر والمراجع المتوفرة في مكتبة جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، بالهند، و مكتبة الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي، بالهند، و مكتبة جامعة دلهي، بالهند، و مكتبة على جراه المسلمة، بالهند، و مكتبة الجامعة المركزية للغة الإنجليزية و اللغات الأجنبية، بحيدرآباد، في الهند، و نجحتُ إلى حدِ ما في تحقيق غايتي المنشودة و قدّمتُ ثمرة تحقيق و بحثي في صورة هذه الرسالة.

و لإنجاز هذا البحث وفق المنهج المعين، قمتُ أولاً بدراسة عميقة للكتاب "أنا" لدكتور عباس محمود العقاد حرفاً حرفاً و بعد ذلك جمعتُ المواد و المعلومات التي تتناول السيرة الذاتية كموضوع لها ثم ناقشتُ مقومات السيرة الذاتية الناجحة، و لتحقيق هذا البحث قسّمتُه إلى ثلاثة أبواب و التفاصيل عنها كما يلي:

في الباب الأول الذي عنوانه "السيرة الذاتية و حقائقها في اللغة العربية" حاولتُ أن أكتب عن السيرة الذاتية و حقائقها و تقاليدها و جذورها الأصلية، و كذلك أشرتُ إلى الشروط التي لابد من مراعاتها عند كتابة السيرة الذاتية، و يحتوي هذا الباب على التاريخ الابتدائي لكتابة السيرة الذاتية في الآداب الغربية و كذلك أشرتُ إلى نشأتها و تطورها في الأدب العربي الحديث و ذكرتُ أيضاً العوامل الهامة التي لابد من وجودها وقت كتابة السيرة الذاتية، و لتوضيح هذه الحقائق اعتمدت كثيراً على أقوال الأدباء المفكرين و النقاد و العلماء.

أما الباب الثاني لهذه الرسالة فهو معنون بـــ "نبذة عن حياة الأستاذ عباس محمود العقاد و آثاره الأدبية" و في هذا الباب قد حاولت أن أذكر حياة الأستاذ و العصر الذي عاش فيه، و أبرزت فيه مساهماته في النقد العربي و نظريته عن الشعر و موضوعاته و قد ذكرت فيه تراثه الأدبي.

أما الباب الثالث فقد أبرزت فيه أهمية الكتاب وذكرت أنه من جملة الكتب التي كتبها الأستاذ الكبير والناقد العظيم والأديب العملاق والمؤرخ الشهير عباس محمود العقاد بيانا عن حياته الشخصية والنفسية، وحالته الفكرية العلمية وتحدث عن فلسفته بين الشباب والكهولة وعن تجاربه وخبرته الأدبية

والثقافية، ثم وضحت فيه فلسفة العقاد في الصحافة والكتابة ومذاهبه في القراءة والمطالعة وفي الأخير ذكرت نزعاته النفسية كما تنعكس من الكتاب، و في نهاية البحث قدمت خلاصة البحث أبرزت فيها أهم نقاط البحث.

قبل الختام لابد لي من تقديم عواطف الشكر و الامتنان إلى كافة الأساتذة الذين مدوا يد العون إلى في أثناء إعداد هذا البحث فأستاذي و مشرفي الدكتور محمد قطب الدين يستحق خاصةً مشاعر شكري الخالص لما أسدي إلى من إرشادات غالية و نصائح قيمة، و لما مهد لي السبيل لإنجاز هذا البحث و إتمام هذه الرسالة، فله مني أحسن التقدير و الامتنان و الاحترام.

أقدم هذا البحث كبضاعة متواضعة لا أدعي أني استوفيت شروط البحث و الدراسة بكاملها ولكني لم أدخر جهدا في أن أحسن و أجيد، فأقدم هذه الرسالة طالباً العفو و الصفح عن الأخطاء و الهنات و قد تكون عند بعض الناس كثيرة، و أخيراً أدعو الله تبارك و تعالى أن يجعل هذا العمل عملا نافعاً و مفيداً و يهبني التوفيق لتصحيح أخطائي كما يهيئ لي من أمري رشداً فهو ولي التوفيق و الرشاد.

محمد أمير الحسن

تحريرا في: 2010/07/23

الباب الأول

السيرة الذاتية وحقائقها في اللغة العربية

الفصل الأول

مبدأ السيرة الذاتية

إن السيرة الذاتية هي التي يتحدث فيها الكاتب بقلمه عن أحواله الذاتية، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، وما جري له فيها من أحداث الفرح والترح، تعظم وتضؤل تبعا لأهميتها، وقد تسجل فيها الوقائع و الأحداث يوما فيوما أو بصورة متقطعة بعد أن تجمع عناصرها من مصادر متعددة، ويعرف قاموس أوكسفورد السيرة الذاتية كما يلي: "كتابة الشخص لتاريخه وقصة حياته بقلمه" وقد ورد في "معجم مصطلحات الأدب" أن السيرة الذاتية "سرد متواصل يكتبه شخص ما عن حياته الماضية".

وإن للسيرة الذاتية نكهة خاصة، لأن الكاتب يتحدث فيها عن نفسه، فنحس بأن الكلفة قد رفعت بيننا وبينه كما يقول الدكتور إحسان عباس في كتابه: "وكاتب السيرة قريب إلى قلوبنا، لأنه إنما كتب تلك السيرة من أجل أن يوجد رابطة مابيننا وبينه، وأن يحدثنا عن دخائل نفسه وتجارب حياته حديثا يلقي منا آذانا واعية، لأنه يثير فينا رغبة في الكشف عن عالم نجهله، ويوقفنا من صاحبه موقف الأمين على أسراره وخباياه، وهذا شيء يبعث فينا الرضي"[1]. وإن السيرة الذاتية تعتبر إحدي الجوانب الهامة النابضة بالحياة

السردية للذات المحورية وإحدي التجارب الحية المضيئة في حياة أصحابها، خاصة إذا كانت الذات الكاتبة هي صاحبة القلم التي سطرت هذه السيرة ووضعت فيها من نفسها وخاطرها وفكرها وذاكرتها وتاريخها كل مايعطيها تأشيرة مرور إلى الساحة الإبداعية كعمل أدبي له مقوماته ومزاياه الخاصة، حيث تتسم السيرة الذاتية في هذه الحالة بميسم الصدق الفني والتعبير الذاتي النابع من خطوط عريضة لحياة الذات الكاتبة[2]، وما أصدق الدكتور جونسون الأديب الإنجليزي الشهير، حين يقول: "إن حياة الرجل حين يكتبها بقلمه هي أحسن مايكتب عنه"[3].

إن فن السيرة الذاتية قديم في الأدب العربي وليس من الفنون المستحدثة كما يظن البعض في عصرنا، فكتب بعض القدماء من أعلام الفكر والأدب و العلم عن حياتهم، ومن أهم كتب السيرة الذاتية العربية القديمة "الاعتبار" لأسامة بن منقذ، و"المنقذ من الضلال" للإمام الغزإلى، وفي العصر الحديث اتجه كثير من الأدباء إلى كتابة السيرة الذاتية بالأسلوب الحديث و التحليل النفسي الممتع ومنها: "الأيام" للدكتور طه حسين، و "حياتي" للأستاذ أحمد أمين، و "حياتي" لتوفيق الحكيم، و "أنا" لعباس محمود العقاد[4].

متي يكتب الإنسان سيرته الذاتية؟

إن كل سيرة ذاتية في حد ذاتها هي تجربة ذاتية لكل شخص من الأشخاص فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج وأصبحت في نفس كاتبها نوعا من القلق الفني وأصبحت تلح عليه للإفضاء بها للناس دون أي حرج، فإنه لابد أن يكتب سيرته الذاتية. وإن الإنسان الذي يعجز عن أن يري مرتبته في الحياة

بكل الوضوح وليست له نظرة عميقة ونظرة خاصة في تجربة حياته لايناسب له أن يكتب سيرته.[5]

الهدف لكتابة السيرة الذاتية

إن الهدف و الغاية التي تحققها كتابة السيرة الذاتية من صاحبها هي تخفيف العبء عن عاتقه بنقل التجربة الذاتية إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها، فهي توفر فرصة للفنان يريح نفسه بالإعتراف ولإيضاح موقفه من المجتمع ويعني ذلك أنه يكتب ليستفيد بالتنفيس عن مكنونات قلبه وإطلاق نفسه من عقالها، وليحصل على المتعة الفنية المستحدثة عن الصدق و القدرة على التأثير، ويكتب ليفيد الناس بتجاربه الذاتية ومشاركته لهم:

1. فإذا كان يحس بالاضطهاد من المجتمع، تخفف من هذا الشعور بالحديث عنه.
2. وإذا أحس بوقع ذنوبه وآثامه، أراح ضميره بالإعتراف بها، وقمع نفسه بالإعلان عن سيئاتها، ووقف منها موقف المتهم والقاضي معا.
3. إذا مر بصراع نفسي أو روحي أو فكري وخرج منه سالما رسم صورة لذلك الصراع وانهي قصته بالهدوء الذي يعقب العاصفة، والاستبشار الذي يأتي بعد اليأس.
4. إذا فشل واخفق أو هزم أو اتهم، فهو يرضي ضميره وهو يظهر الاعتذار والتعليل والتبرير لماحصل. فالكشف عن دخائل نفسه هو الطريق الصحيح ليقدره الناس من حوله وظهور صدقه.[6]

وإن كل هذه العوامل والأسباب تكون وراء الغاية والهدف من كتابة السيرة الذاتية.

الشروط لكتابة السيرة الذاتية

إن السيرة الذاتية تكتب مرة واحدة فقط لاتكتبها مرارا، لأن نص السيرة الذاتية نصا مهما في حياته الأدبية و الاجتماعية عند صاحبه الذي كتبة وكان نفسه موضوعا له في ذلك الوقت، ولأن السيرة الذاتية تكتب بعد الخمسين عاما من عمره عادة، وأن جميع التدريبات في السيرة الذاتية يجب أن تكون فيها التعميم، ومن الناحية الهيكلية، وعمل التذكير يجب أن يكون واضحا تماما في نتاج التذكير العملية،[7] وأن كتابة السيرة هي كتابة غير عادية بالنسبة إلى الذي يكتبها والذي يقرؤها، وعلى هذا النحو تخضع لشروط خاصة تتصل بفعل الكتابة لا بالكتابة ذاتها، وإذا قبلنا أن السيرة الذاتية يمكن أن تمثل جنسا أدبيا فليس حق لنا أن نسأل القصاص أو الروائي أو الشاعر أو غيرهم من المبدعين أين ومتي ولماذا كتب نصه ولكن كاتب الترجمة الشخصية محكوم بأسئلة الزمان والمكان والموضوع: متي وأين ولماذا؟ إن السيرة الذاتية ليست هي من تقاليد الثقافة العربية، ولكن العرب مع تطور نهضتهم الأدبية استوعبوا أجناسا أدبية لم تكن راسخة التقاليد في الثقافة العربية عموما ولذلك سيكون وضع السيرة الذاتية أشبه بوضع الرواية وفن المسرح والقصة القصيرة وغيرها من الفنون الأدبية الأخري التي جاءت إلى ثقافة العربية نتيجة علاقتها المباشرة وغير المباشرة بالحضارة الغربية عموما، فالدكتور طه حسين الذي ألف "الأيام" التي تعتبر حتي الآن النص التأسيسي للسيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث

و كذلك"أنا"فهما نتاج هذا اللقاء الفاعل بالحضارة الغربية عموما والثقافة الأوربية بصفة خاصة.[8]

ثمة إذن شروط عامة لفن السيرة الذاتية ومنها تحديدها أن تكون إبداعية واسعة ويعتبر أن هذا الفن الأدبي الحديث لايصح إلا بها ويعرضونها على أساس أنها شروط إنشائية علمية لاتميز بين الثقافات المختلفة ولا تفصل بين التجارب الفردية وهي شروط تتصل بالزمان والمكان والغايات والأسباب.

وإن كاتب السيرة الذاتية ليس كاتبا عاديا ــ كما ذكرنا آنفاــ أن الذي يكتبها هو من بلغ شوطا كبيرا من حياته الأدبية أو الفكرية أو السياسية أو المهنية العامة، ولكن هذا يعتبر في السيرةالذاتية في معناها العام، فلا أحد يشك في أن عباس محمود العقاد عندما ألف كتابه "أنا" فكان شخصية ثقافية كبيرة بل كان شخصية إشكالية بسبب آرائه الجريئة في الأدب ولاسيما عندما نشر كتابه "الديوان" فكان هو وإبراهيم عبدالقادر المازني كلاهما كان شاعرا وكلاهما كان ناقدا أدبيا وكانا على رأس "مدرسة أدبية نقدية" (مدرسة الديوان) كاتبين مجادلين حادين في جدالهما خاضا معا في معارك أدبية، وأحمد أمين جاء من القضاء إلى الأدب فقد لفت أنظار القراء بإسلامياته وقد أصبحت هذه المؤلفات مرجعا أساسيا في تطور الثقافة العربية.[9] إن هذه الأمثلة التي قدمناها وهي من نصوص مدونة للسيرة الذاتية العربية تؤكد أن كاتب السيرة الذاتية هو أقرب إلى الشخصيات العامة في أغلب الأحيان عموما فليس من اللازم أن يكون كاتب السيرة الذاتية من ذوي الشهرة دائما.

العوامل لكتابة السيرة الذاتية

إن العوامل التي تدعو الكتاب والأدباء إلى كتابة سيرهم الشخصية عديدة فهي تعتبر عموما قولا قاطعا يتعلق بمسيرة حياة كاملة أو ردا غير مباشر على آراء جدالية تعرض لها الكاتب في حياته أو موقفا تجاه قضايا تخص الوجود أو المجتمع أو السياسة وإذا كان الكاتب، صاحب السيرة الشخصية يشعر بوقع الزمن الذي يهدده ويعرّض مشروعه للتلاشي في مرحلة ما من مراحل الحياة، فإنه قد يجد في تاليف ترجمته الشخصية الفضاء الأوسع لقطع موافقه تجاه حياته والمناخ الثقافي والاجتماعي الذي يعيش فيه، وتستدعي السيرة الشخصية لكاتبها اللذة الفنية الفريدة في فعل الكتابة نفسه، وقد يجد الكتاب والمبدعون عندما ينغمون في فعل الكتابة ضربا من اللذة الذاتية ولكن هذه اللذة الفنية تبلغ أقصاها في كتابة السيرة الشخصية، ذلك لأن كاتب الترجمة الشخصية يتلذذ باستحضار الذكريات السعيدة التي عاشها.[10] ولقد عبّر كتاب السير الذاتية في الأدب العربي عن هذه اللذة الفنية الفريدة التي عاشوها وهم يكتبون سيرهم الذاتية، فيقول محمد شكري في بداية سيرته الذاتية المعنونة بـــ"الخبز الحافي" ها أنا أعود لأجوس، كالسائر نائما، عبر الأزفة والذكريات عبرما خططته عن حياتي "الماضية ــ الحاضرة" كلمات واستيهامات وندوب لايلئمها القول، أين عمري من هذا النسيج الكلامي؟ لكن عبير الأماسي والليالى المكتظة بالتوجس واندفاع المغامرة يتسلل إلى داخلتي ليعيد رماد الجمرات غلالة شفافة أسيرة.[11] وكذلك ورد في إحدي المجلات الثقافية عن محمد شكري هذا التصريح: "لماذا أتحدث عن جمال الآخر وأنا جميل، أنا نرسيسي أنا أجمل من التي لاتحبني أنا

قوي وشاب "وبعد ذلك ينهض محمد شكري ويتوجه نحو طاولة مجاورة ويضع عليها كرسيا، ويقفز فوق الكرسي بطريقة بهلوانية ثم يعود إلى مكانه ويقول: "لماذا أتكلم عن جمال أملكه أنا نفسي، عندما نحب الآخرين، نحب أنفسنا في الآخرين، أنا الذي يمنح الجمال للآخرين، ولن أمنحه بعد اليوم، لأن في ذلك الكثير من الخبث والمراوغة، وأنا أحب نفسي فقط أنا الوجه والمرآة في آن"[12].

وهكذا تكتسب السيرة الذاتية قيمتها من وعي الكاتب نفسه بأهميتها، فالحياة التي ترويها والتي عاشها صاحبها يجب أن تكون جديرة بأن تروي، فما من حياة شخصية تروي عاشها كاتبها عبثا وعلى هذا النحو يعبر الإنسان عن معني وجوده فيقول جورج ماي(Georges May): إن السيرة الذاتية "تنشأ من رغبة الكاتب في استعادة مسار حياته ليدركه وليهنأ باله بما ينتهي إليه من نتائج تطمئنه إلى أنه رغم الحوادث والتناقض والفشل والنكوص على الأعقاب والتردد والتنكّر، لايزال كما كان وأن الهوية الأثيرة للأنا لم يمسسها سوء"[13].

هذه هي العوامل و الدوافع الذاتية وراء كتابة السير والتراجم فهي بمثابة دوافع توفر الأساس والبنيان لكاتب السيرة الذاتية، فالإحساس الحاد بالزمن واللذة الفنية هي كلها عوامل وأسباب قد تجتمع معا وقد تغيب بعضها ويحضر بعضها الآخر.

العناصر الفنية للسيرة الذاتية

إن العناصر الفنية التي تتميز بها السيرة الذاتية الحديثة هي في الحقيقة العناصر الأدبية في أكثر الأحيان وأن أكثرما كتبه العرب عن أنفسهم صاغوه

في أسلوب واضح سهل قائم على الإيجاز المحكم، ويتصف بسلاسة السرد والبيان القصصي، والعبارة العذبة وحسن العرض، والقدرة على إعادة الماضي وبعث الحياة و الحركة والحرارة في تصوير الأحداث والتجارب والشخصيات وقد امتاز كثير من هذه السير الذاتية، الوضوح والصدق والتجرد في كثير من النظرات و الآراء و التجارب المتصلة بالذات وبالشخصيات، وبعضها صور أصحابها ماعانوه من صراع داخلي وخارجي، تصويرا دافقا بالحيوية والازدياد والنمو، ويكشف عن مدي ما أصابته شخصية أحدهم من تحول وتغير وتطور. وعني كثير من هذه التراجم الذاتية بإثبات عنصري الزمان و المكان والكشف عن أسماء الشخصيات والأماكن وتعزيز الأحداث بإثبات التاريخ وبعض الذرائع والمدونات مع محافظة الاسترسال وعلى السرد الأدبي الجالب للمتعة المرادة من العمل الأدبي مما جعل السيرة الذاتية تحظي بعناية كبيرة من قبيل الأدباء و الكتاب ويقابلها الجمهور بإقبال شديد، لأنها أرضت حاجة العرب إذ نقلت لهم الواقع الملموس في صورة قصصية سهلة عذبة وكانت تقوم إلى جانب السيرة الغيرية، بهذا الدور الأدبي على مدي أجيال طويلة[14].

وإن أقرب السير الذاتية إلى السيرة الذاتية الأدبية بمعناها الحديث هي تلك الكتب التي كتبها الأمير عبد الله وأسامة بن منقذ وابن الهيثم والرازي وابن خلدون، لأنها توافر فيها أكبر قدر من المتعة، إلى جانب تصوير كل منها مع مهارة السرد الأدبي الذي يعتمد على كثير من عناصر الفن، وعلى الدقة الصراحة والعذوبة والسهولة ويعتمد أيضا على قدر من الترابط في أجزاء كل سيرة ذاتية، إن كلها من الأسباب و العوامل التي تحقق المتعة الأدبية الفنية

وتثير التعاطف الوجداني بين كاتب السيرة الذاتية، ويدعوه إلى المشاركة مختلف من تجاربه وانفعالاته وخواطره، ويذهب أدباء السيرة الذاتية إلى أن السيرة تصلح للتدريس وذلك للأسباب التالية:

1. إن الإنسان الفرد أبسط كموضوع للدراسة من القبيلة أو المدينة، أو الأمة التي ينتمي إليها.
2. إن للأطفال ميلا طبيعيا مفيدا نحو الشخصيات، فهم يعيشون مع أبطالهم ويقاسمونهم، وبذلك تتسع دائرة خبراتهم بصورة لاتكاد تعقل في حالة دراسة الجماعات.
3. إن تعرف الشخصيات العظيمة النبيلة في التاريخ يخلق رغبة في التشبه بهم ويبعث على بغض سلوك الشخصيات الشريرة.
4. إن من الممكن أن نجعل الأفراد يمثلون الجماعات، بحيث تكون دراسة لخصائص الأفراد وخبراتهم[15].

أسلوب كتابة السيرة الذاتية

إن السيرة الذاتية لاتكتب في أسلوب واحد ولذا نلاحظ ثلاثة أساليب لرسم السيرة الذاتية وهي كما يلي:

1 ــ الشكل التقليدي السردي: القائم على سرد الأحداث و الوقائع مع الاهتمام من قبل الكاتب بتسجيل وإظهار التطور النفسي والعقلي للشخصية موضوع السيرة، كما يهتم بالتحليل و التأمل والإيضاح وا لتفسير، وإذا كان كاتب السيرة هو صاحبها، يعمد إلى التعبير عن أفكاره ويوضح عن ذاته ويفصح دخائلها ودوافعها، ويكتب تحوله وتطوره في مختلف مراحل حياته الذاتية. وهو لايعنيه

أن يكتب سيرته في شكل فني، إنما جمع سيرته في شكل فصول محاولا إيجاد الوحدة والتماسك، بينهما بقدر الإمكان، عن طريق التطور الزمني في ذكر مراحل حياته منذ حياته الابتدائية، ماضيا في تعريض مراحل عمره المتعاقبة حتي يطلعنا على أطوار شخصية في تدرج وترابط وازدياد ونمو، ويغلب على أسلوبه السرد والتقرير والبعد عن التصوير.

2 ــ الشكل التصويري: يجمع فيه الكاتب بين الطريقة السردية السابقة وبين طريقة الرواية الفنية القائمة على التصوير للتجارب والأماكن و المواقف والشخصيات تصويراً يعتمد على الفن الروائي مثل إجراء الحوار الأدبي والاستعانة باللفظة الأدبية في الحوار، وهذا الشكل مزيج من أسلوب المقالة حين يظهر عن حالته الفكرية والنفسية ومن أسلوب الرواية في التصوير للحقيقة، وبرع في هذا الأسلوب الكتاب الذين دربوا ومارسوا العمل الروائي قبل أن يكتبوا سيرهم الذاتية.

3 ــ الشكل الروائي: إنه الشكل الأرقي في تإليف السيرة الذاتية حيث تتسع مساحة الإبداع ويسمح للمخيلة بأن تلعب لعبتها الفنية، ويقدم عليه الروائي المتمرس عندما يريد كتابة سيرته حيث يصوغ تجاربه ومواقفه في شكل روائي ويتمسك بعناصر الحقيقة فيما يقصه ويتيح له هذا الشكل أن يتواري خلف شخصيته بطل الرواية، ليصور الأحداث والمواقف التي مربها، في حرية من الإحراج.

إن هذا الشكل الروائي في كتابة التراجم أكثر تواترا في الأدب العربي الحديث بين الأشكال الأخري، ثم إن أشهر نصوصها وأرقاها إبداعا هي

النصوص التي كتبت بأسلوب الشكل الروائي ابتداء من النص التأسيسي الأول "الأيام" للدكتور طه حسين وكذلك يعد في هذه الشكل كتاب "الخبز الحافي" لمحمد شكري، و"أوراقي.. حياتي" لنوال السعداوي وغيرهم من الكتاب[16].

* * *

الفصل الثاني

صلة السيرة الذاتية بالتاريخ

إن صلة السيرة الذاتية بالتاريخ صلة قوية، ذلك لأنهما يشتركان في تسجّيل الوقائع والأحداث و المواقف في تصوير مختلف البيئات والمآثر، والكشف عن الصور المادية والنفسية وإذا كانت السيرة الذاتية تنبع من صلب الأدب بخلاف التاريخ بالطبع العلمي فهذا لايعني أن الحس التاريخي منعدم في كتابة التاريخ الخاص الفردي، بل إنه على العكس حاضر بأبعاده الثلاثة المتمثلة في الماضي، والحاضر، والمستقبل، والظاهر لأول وهلة أن الترجمة الشخصية تتخذ موقعا وسطا بين الأدب والتاريخ، وإذا ننظر أكثر في طبيعة هذا الجنس الأدبي نصل إلى تعبير دقيق عميق من حيث حمولته الدلالية، وهو أن هذا اللون من التعبير تتجاذبه قوتان: سلطة الأدب وقوة التاريخ، لأن الكاتب يصوغ تاريخه الخاص صياغة أدبية، وبسبب واقع التجاوب بين الأدب و التاريخ تتميز السيرة الذاتية عن باقي جسد التاريخ العام مع أن الأصل في التاريخ الإنساني هو مجموع التواريخ الخاصة، سواء الفردية منها أم الجماعية، وأن الترجمة الذاتية لاتسقط من فضائها، وإن كان الزمن في الترجمة الذاتية الإسلامية الحديثة يرتبط بالعودة إلى مرحلة أو عدة مراحل وهي في ذات الوقت عودة إلى فضاءات وتاريخ يلتقي فيه ويتكامل التاريخ الفردي و الجماعي وأنها عودة تجد في الكتابة حاضرها وفي الذاكرة ماضيها، ولاريب أن المسافة بين الكتابة والذاكرة أو بين الحاضر و الماضي تاريخية وسردية في آن واحد[17].

وما من شك في أن للحس التاريخي دورا كبيرا وتأثيرا مباشرا في إدراج نص السيرة الذاتية و عرضها، وفي تحديد البناء العام لكل تاريخ فردي.

إن السيرة الشخصية أكثر نبضا من التاريخ بالحياة والتجارب الفردية بحكم محورية الذات الفردية في هذا اللون من التعبير من جهة وثانوية الأحداث من جهة ثانية ومن السهل أن نتنبه إلى كون التاريخ أحد وجوه فتنة هذا الجنس الأدبي، إن التاريخ يجري وراء الحقيقة باحثا وممحصا ثم مبددا لأيّ غموض في عديد جوانب الحياة الإنسانية[18]، فالسيرة الذاتية تقتفي أثر الحياة في ذات الإنسان وكانت ولاتزال أكثر احتفالا بالأدب الذاتي من كل ألوان التاريخ حتي أن التاريخ يعبر عن مدي غني الحياة الداخلية للإنسان وأن السيرة الشخصية هي ملتقي الحق الأدبي والحق التاريخي.

وهناك عدة أمور تبعد أن السيرة الذاتية من الأدب وتقربها من كتب التاريخ وهي كما يلي:

1. الالتزام في كتابة السيرة الذاتية بالصدق التاريخي ليس بالصدق الفني وأن هذا الالتزام يجعل الكاتب أن يقف عند الحقائق، يعرضها ويرتبها ترتيبا خاصا فيضعف عنصر الخيال الذي كان يمكن أن يجعل من السيرة قصة ممتعة وجذابة.
2. البعد عن سيطرة العاطفة على مايصدره من أحكام فكاتب السيرة الذاتية له ضروري ألايسخر الأحكام وا لوقائع والأحداث لعاطفته، فإن ازدياد العاطفة ينحرف بالسيرة عن وضعها الطبعي[19].

* * *

الفصل الثالث

السيرة الذاتية في الآداب الغربية

إن السيرة الذاتية تطورت في العالم خاصة في العالم الغربي بأسباب دينية واجتماعية وثقافية تتعلق بالمجتمع الغربي وهناك أسباب أخري أيضا، يقول الدكتور محمد الباردي في هذا الخصوص: "وقد كانت السيرة الذاتية شكلا من أشكال التعبير تختص به الثقافة الغربية فالأسباب التي أباحت ظهور هذا الجنس الأدبي هي أسباب دينية واجتماعية تتصل بالمجتمع الغربي ذلك أن محاسبة النفس والإيمان بالأخوة بين البشر وبتساوي النفوس كلها في القيمة التي تدعو إليها المسيحية سهلت ظهور بعض السير الدينية الشهيرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاديين كما ساعدت على نتاج ضرب من التلقي يقبل على هذه الآثار. فنجاح اعترافات روسو يتمثل في استجابتها إلى أفق تلق مستجيب لمحاسبة النفس وتعريتها وفضحها طلبا للعفو والمغفرة لكنه كذلك أفق انتظار، صاغه مجتمع متطور انفتح على الفردانية التي اتخذت صيغة جديدة منذ بدايات الرومانطيقية المشيدة بالفرد و الممجدة للآنا وظهور اعترافات جان جاك روسو "كان حدثا هاما في تاريخ هذا الجنس الأدبي"[20].

ولاريب في أن السيرة الذاتية تحتل مكانة هامة في تاريخ آداب كثيرة وهذا الفن يعتبر واسع الانتشار والتطور في الأدب الغربي، فيكفي لنا أن نتذكر بعض السير للكتاب الفرنسيين و الأمريكيين و الروس والألمان والإنكليز والدول الأخري التي تعتبر هاما في الأدب العالمي وخاصة في الأدب الغربي

نحو ليف تولتسوي له سيرته الذاتية بعنوان "الطفولة" التي صدرت سنة 1852م والأخري "المراهقة" صدرت سنة 1854م والثالثة تحت عنوان "الشباب" التي جاءت سنة 1856م كما مكسم غوركي له أيضا ثلاث سير: الأولي عنوانها "الطفولة" التي صدرت سنة 1914م، والثانية صدرت بعنوان "مع الناس" سنة 1916م، والثالثة باسم "جامعاتي" صدرت في عام 1922م، وكتب جان جاك روسو وأدباء آخرين سيرهم الذاتية[21].

وكتب الأديب أحمد صفريوي المراكشي في فن السيرة كتاب "صندوق العجائب" ويشبه أسلوبه أسلوب الأدباء الجزائريين الذين كتبوا السيرة الذاتية وإن كانت له صفاته الخاصة به، ويصور الكاتب فيه القصور والأكواخ والجوع وما عدا ذلك وقد ترك هذا الكتاب أثرا ملحوظا على الحياة العادية.

وكذلك كتب على بو مهدي سيرته الذاتية باسم "قرية البروق" ولقد تركت هذه السيرة أثرها على كيفية معالجة الأدب لموضوع الطفولة والشباب في المغرب بوجه عام وفي الجزائر بوجه خاص. يتحدث على بومهدي عن حياة الكثير من أصدقاء البطل وعن أسر كثيرة تعيش في قرية بعيدة ويذكر من خلالها حياة الجزائر من الثلاثينات حتي الخمسينات واستفاد على بومهدي من تجربة النثر الجزائري في فن السيرة فله مهارة في تصوير الجزائر من الداخل ورسم المصير الإنساني للإفراد والمجتمع بكامله، واستفاد على بومهدي من التقاليد العالمية لنثر السيرة ولاسيما تجربة الأدب الروسي في هذا المجال واهتمامها بتصوير الشخصية المتطورة بتطور العالم الجميع وبتطور الازدياد و النمو الذاتي ولذلك أصبح كتاب على بومهدي "قرية البروق" ذروة الأدب

المغربي في فن السيرة[22]. وتنشط كتابة السيرة الذاتية في فترة التحولات الفكرية وعندما تكون على عتبة أحداث ثورية فقد ظهر كتاب على بومهدي في الحالة الثورية التي عمت البلاد فيصور على بومهدي عملية تطور تكوين الشخصية وتتابع مراحل وعيها الذاتي وتشكل تصوراتها حول العالم المحيط.

ذكرنا من قبل بعض الكتب التي ألفت في مجال السيرة من قبل الكتاب الروسيين والألمانيين والفرنسيين والأدباء الآخرين وذلك لكي نوضح تطوير السيرة الذاتية في العالم وأنه من الحقيقة أن السيرة الذاتية في العربي المغربي أصيلة مع وجود بعض التشابه في معالجتها فمازالت السيرة الذاتية إلى يومنا الحاضر هي الأكثر انتشارا في المغرب، وأن السيرة لاتصور حياة فردية فقط بل هي تكون أيضا صوت الوطن بكامله.

* * *

TH-17966

الفصل الرابع

تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث

إن السيرة الذاتية قد بدأت تحقق لنفسها مكانا متميزا ووجودا كميا ونوعيا بارزا في المجتمع والثقافة العربيين الحديثين بحيث صار بالإمكان اعتبار هذا النوع من الكتابة جنسا أدبيا مستقلا ومشاركا في نسيج الثقافة العربية الحديثة، وأحد حلقات السلسلة الثقافية العربية الجديدة التي تجري عملية إعادة تكوينها منذ أواسط القرن التاسع عشر، وأن الترجمة الشخصية تعتبر في الأدب العربي الحديث إحدي الجوانب الهامة النابضة بالحياة السردية المشعة للذات المحورية، وإحدي التجارب الحية المضيئة في حياة كاتب السيرة الشخصية، فظهرت طائفة من الأدباء الأفذاذ حملت على كاهلها تطوير هذا الفن، فأول سيرة ذاتية عربية ظهرت في العصر الحديث هي كتاب "الساق على الساق فيما هو الفارياق" لأحمد فارس الشدياق، وقد كتب الدكتور طه حسين هو الآخر سيرته الذاتية بعنوان "الأيام" التي هي إحدي السير الفنية الجميلة التي كثر عنها الجدل ودونت حولها الدراسات والبحوث النقدية المتخصصة، ولعل أبرز هذه الدراسات القيمة، تلك الدراسة التي قدمها الدكتور عبد المحسن طه بدر في كتابه "تطور الرواية الحديثة في مصر" و الدراسات الأخري، حيث طرح كل منها إشكالية عن كتاب "الأيام" ولعل هذه الإشكالية تنطبق هي الأخري على كثير من السير الذاتية التي ظهرت في الأدب العربي الحديث ومنها "أنا" و "حياة قلم" لعباس محمود العقاد كشف فيهما عن مكنونات ودخائل نفسها، فإن كتابيه "أنا" و "حياة قلم" هما أجود من أكثر كتبه، وسيرة ذاتية لأحمد أمين الذي

وضعها في كتابه "حياتي"، بعد ذلك كتب تلميذه إحسان عباس ترجمته الذاتية باسم "غربة الراعي" وهي من أحدث ما كتبه أدباء عرب في هذا الفن[23].

وقد ألف توفيق الحكيم سيرته الذاتية بعنوان "سجن العمر" و "زهرة العمر" وله كتب أخري تتضمن أحوالها الذاتية وفي طليعتها "عودة الروح" و "عصفور من الشرق" وغيرها عديد من المؤلفات ولكن أجودها وأروعها كتابان هما "سجن العمر" و "زهرة العمر" اللذان روي فيهما الحكيم أحواله الذاتية، وكتب سلامة موسي أيضا عن سيرته الذاتية باسم "تربية سلامة موسي" وكذلك سيرة الشباب التي كتبها الدكتور محمد حسين هيكل في "مذكرات الشباب" و "سيرة نجيب محفوظ في " الثلاثية" و "أصداء السيرة الذاتية" وقد كتب سيد قطب أحواله الشخصية بعنوان "طفل من القرية" ولصلاح عبد الصبور أحواله الذاتية في كتاب عنوانه "حياتي في الشعر" وكتب لويس عوض ترجمته الذاتية بعنوان "أوراق العمر" ويمكن لي وصف كتاب ميخائيل نعيمة المعنون بـــ"سبعون" بأنه أثر نفيس في هذا الفن الكتابي الصاعد، تحدث فيه نعيمة عن رحلته في هذه الحياة وهي رحلة طويلة ممتعة يتابع فيها القارئ نعيمة على امتداد سبعين سنة كاملة تبدأ من عام 1889م وتتوقف عند عام 1959م[24].

وكذلك وضع سهيل إدريس سيرته الذاتية بعنوان "ذكريات الأدب و الحب" قد سبقت سيرة سهيل إدريس شهرة أدبية واسعة، وتوفيق يوسف عواد هو الآخر دوّن أحوال حياته باسم "حصاد العمر" وكذلك وضع عبد الرحمن بدوي سيرته الشخصية في "سيرة حياتي" وكتب إدوارد سعيد باسم "خارج المكان" وكذلك صدرت سيرة هشام شرابي بعنوان "الجمر و الرماد" وكتب

إبراهيم المازني سيرته الذاتية باسم "قصة حياة" واشتهر حنا مينه بسيرته الذاتية الثلاثية المعنونة بـــ"بقايا صور" التي صدرت سنة 1975م، و "المستنقع" سنة 1977م، و "القطاف" جاءت سنة 1986م، وغيرها من الأعمال السردية الذاتية التي سطرها الأدباء و الشعراء و المفكرون عن حياتهم وتأثيرها المباشر على أعمالهم وإبداعاتهم وأفكارهم وأخيلتهم انطلاقا من أن السيرة الذاتية هي نوع من التاريخ الفردي الذي يتصل بالتاريخ العام في منطقة الالتماس التي تتجاوب فيها ألوان الكتابة مع ممارسات الواقع المعيشية والتي تعتمد على التأويل الذاتي في آلياته الخاصة.

وإن أدب السيرة الذاتية في الثقافة العربية الجديدة يعبر عن بعد آخر من أبعاد التأثر بمفاهيم الأدب الأوربي العالمي الحديث وأجناسه الأدبية المختلفة فهو خطوة في سبيل المساهمة في السلسلة الأدبية العالمية، ويلاحظ في العقود الأخيرة ازدياد الانشغال بكتابة السيرة الذاتية من قبل قطاعات واسعة ومختلفة من الكتاب والمثقفين حتي أن مجلة "الهلال" المصرية خصصت خلال تسعينات القرن العشرين بابا شهريا ثابتا بعنوان "سنوات التكوين" ثم جمعت هذه المواد في كتاب مستقل بعنوان "التكوين: حياة المفكرين والأدباء والفنانين بأقلامهم"[25].

بفضل هذا الانشغال والنمو والشغف بكتابة السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث قد تنوعت الكتابات في السيرة الذاتية وتنوعت أساليب السرد، مثلما تعددت التجارب والمراحل الزمنية التي تجري فيها أحداث هذه السير.

وإن السيرة الذاتية العربية كتبت في أكثر الأحيان بضمير المتكلم واتبع رشاد رشدي هذا الأسلوب في كتابيه "رحلتي مع الحياة" و "الذاكرة الموشومة"

وغيرها و بعض الأحيان كتبت بضمير الغائب كما فعل طه حسين في كتابه " الأيام" وكما فعل سيد قطب في سيرته الذاتية "طفل من القرية".

وإن السيرة الذاتية ليست ذاتية إلى هذه الدرجة التي قد يتخيلها بعضهم، وبمعني آخر ليست السيرة الذاتية شخصية فقط يقول جورج جاسدوف: "إن السيرة الذاتية هي المرآة التي يلتقي فيها الفرد مع ذاته".في الحقيقة أنها تحويل مرآة ذاتية تنعكس فيها أحوال كاتب السيرة الذاتية وعلاقته وتعامله مع الآخرين ربما من هنا تأتي تلك المتعة الخاصة في قراءة أدب السيرة الذاتية أنها تحويل مرآة تتجلي فيها أحوال الكاتب مع أحوال الآخرين. كتب إبراهيم عبدالقادر المازني في "قصة حياة" وقال فيها: "ليست هذه قصة حياتي وإن كان فيها كثير من حوادثها، والأولي أن تعد قصة حياة"، ويعني ذلك هو يكشف عن ذاته مرآة تتبلور فيها ذوات الآخرين فهو يقول: "أصبحت اعتقد أني استطيع أن أعرف الناس بنفوسهم إذا وسعني أن أكشف لهم عن عيونهم صورة صادقة ــ لامزورة ولا مموهة ــ من هذا الإنسان الذي هو أنا، والذي هو كل امرئ غيري"[26]. وأن من الحقيقة أن هذه تجربة فريدة في الحياة الشخصية هي ذات قيمة للآخرين أيضا[27]. ويحيي حقي يقول في "كناسة الدكان" التي هي سيرته الذاتية: "مطلوب مني أن أكتب هنا سيرتي الذاتية، التحدث عن النفس، ياله من لذة ساحرة تواضعها زائف، ياله من ملل فظيع يستحب معه الانتحار". وكذلك يتحدث هشام شرابي عن ذاته في "الجمر والرماد" و "صور الماضي" و "مفتاح السيرة مقولة توماس مان "لايعيش الفرد حياته الشخصية فحسب ، بل يعيش أيضا حياة عصره وحياة جيله"[28].

وملخص القول أن السيرة الذاتية هي فن جميل يرتاح القارئ إلى مواصلة قرأته تكونه يجد فيه حكاية حاله حينا وحينا آخر يجد فيه الأسوة و القدوة والموعظة العبرة إلى مايظفر به من متعة لأن السيرة الذاتية تتضمن تجارب حياة الكاتب وتأملاته الشخصية وتعاملاته مع الآخرين.

سير النساء الذاتية في الأدب العربي الحديث

عدد السير النسائية العربية قليل للغاية وذلك بالمقارنة مع تلك الخاصة بالرجال، ويقول الباحث محمد البحري إن لقلة الحضور النسوي في هذا الحقل إلى جملة أسباب عديدة ومنها أن السيرة الذاتية النسائية معنية بلغة الجسد وتاريخه، لغة العاطفة والطموح و الآمال الشخصية الخاصة بالذات، والوجه الثقافي للجسد في الثقافة العربية ــ الإسلامية طاغ على جانبه البيولوجي الموضوعي، ولذلك أحيط بسياج من المحرمات فهو "ليس مسلحا كي يواجه كلمات الآخرين كما تقول آسياجبار: " الرجل وحده يحتكر الحديث باسم الجسد وأن تكتب المرأة يعني في نظر مونيك غادان تحقيق" اختراق مزدوق، بصفتها فردا تجريديا، و الحال أنها في الواقع موضوع جميع المحرمات، أنها الكائن الذي لاينبغي الحديث عنه ولارؤيته ولا معرفته أنها تمر غير مرئية"[29].

بالرغم من هذا كله ظهرت السير الذاتية النسائية في العصر الحديث منذ أواخر القرن التاسع عشر، فقد شهد العالم العربي في أواخر القرن التاسع عشر تقدما حضاريا أدي إلى تطور فن السيرة الذاتية النسائية تطورا ملحوظا وهذا الفن هو ظاهرة أدبية ارتبطت بنشوء المدن الكبري والمتغيرات الحضارية التي ساهمت بشكل فعال في تطوره. ونشأت السير الذاتية النسائية بناء على عدة

عوامل تساهمت في ظهورها وانتشارها ومن أبرزها وعي المرأة بأهمية حضورها في الخطاب الأدبي الحديث في مقابل هيمنة النظام الذي يعلى إنجاز الرجل ويهمش إنجاز المرأة فضلا عن العوامل الاجتماعية و السياسية التي ساعدت على بروز هذا الفن وازدياده.

ويعتبر مطلع الثمانينات بداية مرحلة النضج الفني للسير النسائية العربية، إذ بدأ ظهور نماذج من السير النسائية تنطبق عليها إلى حد كبير شروط السيرة الذاتية كفن أدبي حيث ظهرت بعد الأعمال التي تتناول جوانب متعددة وشبه كاملة عن كاتباتها كالسيدة فدوي طوقان في سيرتها الذاتية "رحلة جبلية رحلة صعبة" التي صدرت سنة 1985م، وفيها تروي الشاعرة تفاصيل طفولتها وشبابها ونضوج تجربتها الشعرية فنري في سيرتها الجرأة والتحدي والكشف عن الذات دون خوف أو خجل وبصورة واضحة بعيدة عن الغموض و التعقيد وهذه المزايا تفتقر إليها الكتابات العربية وخصوصا كتابات المرأة فقد وجدت فدوي طوقان في سيرتها الذاتية فضاء أدبيا ملائما للتعبير عن الهوية الشخصية فهي تسعي إلى بناء كيان مستقبل مثقل بالآمال والطموحات تزول أمامه كل مظاهر الدونية والاضطهاد والقمع ففي هذه السيرة نستطيع أن نري الكثير من المظاهر التي وضحت عنها الكاتبة بصورة جلية وبصدق وشجاعة منها تعودها على الانكفاء عن النفس و الغياب في داخل الذات وعاطفتها والانعزال حتي عن أقرب الناس فهي تقول في سيرتها: "رحت أتحصن بالعزلة، كنت مع العائلة ولكن حضوري كان في الواقع غيابا إلى أبعد حدود الغيابة كان لي عالمي الخاص الذي لايمكنهم اقتحامه ولقد ظل هذا العالم موحدا

أمامهم ولم أسمع لأحد باكتشافه"[30]. ونري في حديثها عن الأدب أنها توصل للقارئ شعورها تجاه ذلك العالم الذي أضفي على حياتها معني وقيمة حقيقية وساهم في بنائها من جديد وأتاح لها فرصة ظهور إمكانياتها وقدراتها الأدبية، ونلحظ ذلك التحدي الكامن في أعماقها والراسخ في ذهنها في سبيل تحقيق الذات والوصول إلى المبتغي الذي سمعت إليه الكاتبة وبناء شخصية مستقلة قادرة على العطاء والدخول في مختلف ميادين الحياة بحرية ولم يكن على حساب الآخرين فقد كانت تراعي مشاعرهم وأحاسيسهم وتقدر عقليتهم التي تتعارض مع الكثير من ميولها والتمرد الكامن في شخصيتها إذ هي تقول في كتابها: "كنت أحيانا أفكر بالهرب بحثا عن الخلاص من العذاب و الألم غير أنه كانت لدي رقة قلب بالغة تجاه شيوخة أبي بالرغم من كل شيء فما ملكت يوما القلب القاسي الذي لايبإلى بآلام الآخرين في سبيل نزعاته ومطامحه الكبيرة"[31]. ومن أجمل ما تعبر عنه الكاتبة فدوي طوقان هو حديثها عن عاطفة الحب تلك العاطفة الإنسانية التي تساهم في تصفية النفس البشرية من الشوائب والتي ظلت بالنسبة لها تاكيدا لإنسانيتها المسحوقة وأنقاذا لها من جبروت وتسلط المحيط الذي طوقها بتقاليده وأفكاره الرجعية المتنافية مع تلك العاطفة السامية فتتحدث فدوي طوقان عن الحب بأسلوب بالغ الجمال و السلاسة والعذوبة.

وفي سيرة فدوي طوقان من البداية إلى النهاية إصرار الكاتبة عزمها من أجل التحرر من قيود العائلة أولا ومن ثم قيود المجتمع الذي فرض عليها قوانينه الصارمة، ولكن الشاعرة فدوي طوقان تذكر كل شيء من دقائق حياتها وتجاربها في صدق وشجاعة[32].

فتطورت السيرة الذاتية النسائية وظهرت كتب عديدة بعد فدوي طوقان ومنها" ماكتبته لطيفة الزيات عن سيرتها الذاتية في كتابين "حملة تفتيش – أوراق شخصية" وفي "صاحب البيت".

وكذلك كتبت بنت الشاطئ سيرتها بعنوان "على الجسر" فهي تذكر أحوال حياتها بأسلوب بليغ وسهل، وهكذا كتبت نوال السعداوي سيرتها الذاتية باسم "أوراقي.. حياتي" فالكاتبة تقدم أحوال نفسها وذاكرتها بطريق متميز، وأسلوب عميق، وذكرنا هؤلآء الأسماء على سبيل المثال لا الحصر هناك كتب كثيرة مهمة من سير النساء اللآتي كتبن حياتهن بأسلوب رائع وجميل، وملخص القول: إن السيرة الذاتية أم كانت للرجال أم للنساء قد باتت الآن جنسا أدبيا معترفا به، حاضرا وجديرا بالقراءة في السلسلة الثقافية العربية، وقد تحققت في سياق هذا الجنس الأدبي أعمال هامة.

* * *

الهوامش

---

[1]. "فن السيرة" للأستاذ إحسان عباس، ص: 101.

[2]. A History of Autobiography in antiquity, part one, By Georg. Misch, (Translated in English by E.W. Dickes) Page:7-8.

[3]. "التراجم والسير" للأستاذ محمد عبدالغني حسن، ص:23.

[4]. "فن السيرة" للأستاذ إحسان عباس، ص:83.

[5]. المصدر السابق، ص: 105.

[6]. "الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث" للدكتور يحيي إبراهيم عبد الدايم، ص: 2-16.

[7]. The Critique of Autobiography, By Marc Eli Blanchard, Page:111-112.

[8]. L Autobiographie, by Georges May, التعريب باسم: (السيرة الذاتية)، بقلم عبد الله صولة ومحمد القاضي، ص:28.

[9]. "أوراقي.. حياتي" لنوال السعداوي، ج2، ص: 7.

[10]. المصدر السابق، ص: 7.

[11]. Time in Autobiography, By Burton Pike , Page:326-329.

[12]. "الخبز الحافي" للأستاذ محمد شكري، ص:7.

[13]. المجلة السبع. الصادرة من السعودية العربية، ص: 33.

[14]. L Autobiographie, by Georges May, التعريب باسم: (السيرة الذاتية) ، بقلم عبد الله صولة ومحمد القاضي، ص:63-64.

[15]. Some principle of Autobiography, By, William L. Howarth, Page:365-367.

[16]. "فن السيرة" للدكتور إحسان عباس، ص: 83-91.

[17]. "الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث" للدكتور يحيي إبراهيم عبد الدايم، ص:126-133.

[18]. The Autobiography and Life History, By, Percival M.Symonds, Page:206.

[19]. The Autobiography in Modern Arab Literature and Culture, By, Thomas Philipp, Page:577-578

[20]. "فن السيرة" للدكتور إحسان عباس، ص:88-103، و"الترجمة الذاتية في الأدب.

[21]. العربي الحديث" ليحيي إبراهيم عبد الحليم، ص:5-26، و The Autobiography and life of History, By Percival M. Symonds, Page:207-209.

[22]. "عندما نتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث" للأستاذ محمد الباردي، ص: 3-4.

[23]. L Autobiographie, by Georges May, التعريب باسم: (السيرة الذاتية)، عبد الله صولة ومحمد القاضي،ص:47، و A History of Autobiography in antiquity, part one, By Georg. Misch, (Translated in English by E.W. Dickes) Page:7-8.

[24]. "حدود العصور، حدود الثقافات، (دراسة في الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية) ص:56-67. (التعريب د/ ممدوح أبو ألوي، ود/ راتب سكر.

[25]. In my childhood: A study of Arabic Autobiography, By Tetz Rooke, page:191-215.

[26]. The Autobiography in Modern Arab Literature and Culture, By, Thomas Philipp, Page :589- 595.

[27]. كتاب الهلال 566، فبراير 1998م.

[28]. "أدب السيرة الذاتية" للأستاذ عبد العزيز شرف، ص:79.

[29]. The Autobiography in Modern Arab Literature and Culture, By, Thomas Philipp, Page :577.

[30]. مجلة "اتجاه" العدد2000/17، عدد خاص عن شرابي، تصدر من اتحاد جمعيات أهلية غربية تسارع ليفونتين، حيفا.

[31]. الجريدة "فصول" 1985/4م، تصدر بالقاهرة.

[32]. "رحلة جبلية رحلة صعبة" لفدوي طوقان، ص: 58.

الباب الثاني

عباس محمود العقاد: حياته و مساهماته في الأدب العربي

الفصل الأول

عباس محمود العقاد: حياته وأعماله

إن الله تبارك وتعالى خلق خلقا وجعل بعضهم عظيما و أن آيات عظمتهم كثيرة جدا، هم يمتازون بهذه الآيات بين أقرانه ونظرائه، فان لم يكن منفردا بـــآية يمتاز بها بين معاصريه فما هو بعظيم، وأولي به أن يحسب في الغمار الذي تتشابه فيه الملامح و تتكرر فيه الرؤس والأرواح. ولكن الآية التي تتجلي في حياة جميع العظماء هي امتداد الأثر بعد الحياة، فلا تنتهي آثار العظيم بانتهاء السنين التي يقضيها في هذاالعالم، ولاتقف هذه الآثار عندحدود البلاد التي نشأ فيها فهي على اختلاف الصفات والأعمال قوة تتخطي حدود الزمان والمكان، ولاتزال علما من أعلام الهداية التي يستنير بها بنوالإنسان من قومه وغير قومه، و في زمنه وغير زمنه، أعماراطوالا بعيدة الآماد التي نسميها الخلود. وعلى هذا المقياس ذهبت أجمع أطراف العظمة العقادية في جوانبها المختلفة، وحقا أنه ملأ الدنيا وشغل الناس وتلك هي عبقرية صاحب العبقريات التي قدر لصاحبها أن يتردد اسمه في العالم العربي والإسلامي على حد سواء بما يشرف أرض مصر التي نشأ عليها ودرج بين ربوعها وعاش تحت سمائها أربعة وسبعين عاما طالما ترنم بالحرية على منابر الصحافة والإذاعة أمام كل طغيان عرفه تاريخها الوطني الطويل حتي أتم رسالته لأبناء جيله على أحسن ما يؤدي الرسالة حامل القلم الذي يحس بأن بنان القاري يحمل

معه قلمه في كل ما يكتب، لقد أدي العقاد العملاق رسالته بالقلم دون شك وعاش حياته مؤمنا بحرية الكلمة وقوة أثرها.

ومن أجل هذا كله أصبح العقاد سيرة تروي، ومواقف بطولية خالدة تقص، وذكريات عطرة تتردد في جنبات الإنسان المؤمن بإنسانيته، وصدق الشاعر ابن الرومي حيث قال:

إنا إلى الله راجعـــين فقد غال الردي سيرة من السير[1]

تفتحت عيون العقاد على نور الحياة في أسوان يوم الجمعة 28 يونيو عام 1889في مصر[2] وهذه هي المدينة التي وصفها العقاد صفاء في الجو، قلما تشوبه غاشية، هي بلدة خالدة، بل هي بلدة مخلدة، لأن معالم الخلود في الهياكل والتماثيل مستعارة من محاجرها فيها من ذكرى العلم، كما فيها من ذكرى الحرب والسياسة[3].

كانت ولادته على صهوة جواد وعلى قعقعة السلاح والسنابك لأن جده عمر آغا كان قائدا في جيش محمد على الذي ذهب لفتح السودان وتأديب "نمر" ملك شندي الذي أحرق اسماعيل ابنه وشن معه في الحملة الأولي للسودان سنة 1821م[4].

أما والد العقاد فينحدر نسبه من دمياط، فقد كان جد جده منها وكان يشتغل بصناعة الحرير ثم انتقل بصناعته إلى المحلة الكبري فاتخذها مركز النشاطة ومن هنا عرفت أسرة ابيه بذالك اللقب "العقاد" نسبة إلى تلك الصناعة دون سواها من الصناعات و الحرف.

كان والد العقاد "محمود إبراهيم مصطفي العقاد" يعمل صرافا لبلدة "استا" من بلاد مصر العليا ثم نقل ليعمل كاتبا ماليا بأحد أقسام محافظة الحدود آنذاك، ثم رقي إلى وظيفة " أمين محفوظات" بمدينة أسوان، وخلال عمله هناك تزوج بوالدة العقاد وإن لم تكن والدة العقاد أولى زوجاته من النساء، فقد تزوج قبلها بسيدة من قرية من قري الإقليم تعرف "بالمنصورية" أنجب منها أكبر أبنائه "محمد وابراهيم".

لم يكن والد العقاد على وفرة من الرزق، إذ كان راتبه الشهري لايتجاوز عن بضعة جنيهات مع كثرة عياله، ولكنه اعتاد قبل تناول عشائه أن يسأل عن جيرانه وجاراته من الفقراء هل عندهم ما يأكلون أو يأتدمون ليلا؟ وقد يحمل بنفسه إليهم بعض طعامه إذ كانت هذه المشاركات في نظره من واجبات الجار الميسور نحو الجار الذي يشكو الفاقة والحرمان، إعتزازا بالله وغيرة على الحرمات وأنفة من الهوان، ومعرفة بالواجبات، وكلها مما ورث الأبناء عنه فالأنفة التي لازمت العقاد هي بعض مأثورات أبيه وأمه، وقد ظهرت فيه منذ نشأته[5].

فالعقاد ابن بيئته وابن مجتمعه وزمنه ليس في ذالك شك، هو بعد ذالك عظيم في نفسه وبما فطر عليه وبما اكتسب وبما أخذ و ما أعطي هومقياس عظمته و أنه لم يترك الدنيا كما أتاها، بل ترك فيها تراثا يحس بأثره القادمون .

وصف الأستاذ أحمد شريف في مقال له كتبه تحية للعقاد عند بلوغه السبعين في كتاب"العقاد دراسة وتحية" أثرالبيئة على العقاد فقال:"في النصف

الثا ني من القرن الما ضي اهتزالسودان بأحداث ضخام. و كان قد تهيأ للثورة على الحكم الظالم المستبد الفاسد لما بدأ يشعر بوحدة القومية تحل محل القومية في نظامه الاجتماعي و كان مهب المطامع الاستعمارية التي جعلته ردحا من الزمن ومسرحا للصراع بين الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين واندلعت ثورته على الفساد الكامن في نفوس أهله قبل الفساد المستشري في حكومة ذلك الزمان، و كان نبراسها الدين وأحكامه وخلقه القديم[6].

و تسامعت مصرالتي يتبعها السودان، بما في هذا السودان من أحداث و تسامعت بها أسوان بنوع خاص، لما لها من القرب والقربى بالسودان. وأسوان هي القاعدة الطبيعية لحملة الاسترجاع كما كانت المرفأ للهاربين من جحيم المهدوية قبل ذاك، منهم من أتي مستقرا، و منهم من أتي إلى أن يترقب الفرصة ليعود إلى حيث كان. ويتلقي الناشئ من هذه الظروف التاريخية التي تحيط بمدينته دروسا لاتعد، منها ما يعيه واضحا ومنها ما يتسرب في كيانه بغير وضوح.

ثورة دينية، تقترن بثورات دينية للإصلاح، فتوجه ذهن الناشئ إلى النظر في الدين و مكامن قوته وما يعتريه من الضعف حينا ومن سخافات السخفاء أحيانا وتدفعه إلى التفكير في تخليص هذا الدين وهؤلاء المتدينين من أباطيلهم التي يظنون أنها الدين الحنيف وليست من الحنيفية ولا من الدين في كثير ولاقليل وكل ذلك حافز للعمل والتفكير.

ويصحبه درس بليغ تلقيه على نفسه مباشرة ولاتمر فيه بالسامع والأنظار، حوادث ذلك الزمان، درس في الإنسانية ودرس في الدعوى العريضة التي يدعيها البيض أصحاب رسالة الحضارة والإنسانية بين الهمج الملونين.

ونستطيع أن نلخص كله إلا أن الموقف بعد منتصف القرن التاسع عشر كان على الوضع الآتي: السودان تتأجج فيها الدعوة الوهابية و ثورة المهدي والحجاز، و ليبيا ترتفع فيها صراخات ثورة السنوسي، مصر ترهص بتمرد الثوار العرابيين وباختصار كانت خلفية العالم العربي تموج بسخط الساخطين وثورات المصلحين، ووسط هذا الحقبة المشحونة بالثورة والثوار ولد عباس العقاد ليستقبل هذا البحر المتلاطم من الأحداث، وكان لابد لهذه البيئة الواسعة الحافلة أن تفعل فعلها في نفس مرهفة وقلب ذكي[7].

تلقي عباس محمود العقاد مبادئ القراءة والكتابة بمكتب القرية ثم التحق بالمدرسة الابتدائية وتخرج منها سنة 1903م[8] كان من نجباء طلبة المدرسة وهناك في تلك المدرسة تجلت خصال الفتي واعتزازه بنفسه وزاول الفتي دراسته وكانت بوادر النبوغ ظاهرة جلية فيه دون أقرانه الكثيرين من أبناء بلدته، وكان مدرس اللغة العربية يعجب منه كلما طالع كراسته في الإنشاء وكان يلفت معلميه بذكائه ومواهبه الأدبية. في يوم من الأيام زار الشيخ محمد عبده المدرسة ودخل الفرقة الرابعة في حصة الإنشاء فالتفت نظرته إلى كراسة التلميذ عباس في تبويبها و نظافتها فوقف بجواره يقرأ سطورا من موضوعه الذي كتبه فخاله أن ذلك التلميذ من دون زملائه بالفرقة يدعم الجانب الذي يكتب

فيه بالحجج والبراهين التي تستغرب ممن في سنه فيعجب له ويتبسم ويربت على كتفه – بعد ان سأله عن اسمه– مخاطبا أستاذ اللغة العربية الشيخ محمد فخرالدين "ما أجدر هذا التلميذ أن يكون كاتبا بعد"[9].

وكأنما تلك الجملة المأثورة في حياة الكاتب الكبير بمثابة الإشعاع الذي ينعكس ضوءه في ظلمات الليل الحالك فيجده الساري وسيلة من الوسائل التي تساعد ليسلك طريقه في تلك الظلمات، وإن شئنا أن نقول: كان بمثابة (كلمة السر) التي تقال أمام الكنز فتفك تعاويذه وطلاسمه، لذلك ظل العقاد يذكر جملة الإمام هذه حتي أخريات أيامه.

وخلال حياته وأحوال العالم المتشبعة راودت الفتي الآمال التي تلازم من في تلك السن المبكرة، ففكر أن يتم تعليمه بالمدرسة الحربية فيحقق ذلك الأمل الذي كان يلازمه أثناء لعبه الجيوش الصبيانية ولمح في نفسه ثمة أملا آخر هو دراسة النبات والحيوان، وكثيرا ماوقف الصغير يرقب الطيور المهاجرة إلى بلدة في مواسم الهجرة ويتتبعها وهي طائرة المسافات الطوال. فعاش الفتى الصغير يتمنى تحقيق تلك الآمال الكبيرة إلا أن أباه كان يرى أن يكتفي بما حصل من الدرس وأن يسلك الوطنية الميري.

يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه "مع العقاد" مايلي:

"على أنه إذا كانت قد فاتته الجندية الحقيقية فإن حياته الأدبية والصحفية لم تخل من نضالها، بل لقد تحول بها إلى نضال محتوم، أما شغفه بالزهور والطيور وطبائع الحيوان فلم يكن صادرا فيه عن ميل حقيقي لدراسة الزراعة،

وإنما كان صادراعن وجدان فني صادق في طواياه، وهووجدان جعله يتعاطف مع الطبيعة في مختلف مظاهرها ويهيم بها على نحوما يهيم الشعراء المولعون بوصفها وتصويرها"[10].

في سنة 1903م أكمل العقاد الدراسة الابتدائية ولم يكمل دراسته في المدارس والمعاهد الرسمية بل أخذ يكملها بنفسه معتمدا على ذهنه الخصب والتحق ببعض الوظائف الحكومية ثم تركها وعمل بالصحافة في القاهرة وصار معلما في المدرسة مع صديقه المازني[11].

وتعلم العقاد الإنجليزية وأجاد فيها، وقد أخذ المازني والعقاد يكتبان في النموذج الجديد ويهاجمان النموذج القائم عند حافظ وشوقي.

وخلال عمله بوظيفته بتلك المدينة النائية في الصعيد كان وبعض زملائه والمؤظفين من أبناء قنا يعقدون الندوات الأدبية لإلقاء الزجل ومقطوعات الشعر التي ينظمونها.

وقد استقال العقاد من وظيفته سنة 1906م والتحق بمدرسة الفنون والصنائع. وقد تعرف العقاد على سعد زغلول وأصبح كاتبا لحزب الوفد ولسانه وكان يكتب في جريدة البلاغ الوفدية مقالات سياسية، وقاد في هذه المقالات معارك مع كتاب الأحزاب الأخري مثل هيكل، وهي ارتقت لفن الهجاء العربي القديم يستمد من المبادئ العامة من فكر راق نشيط. وفي هذه الفترة من هذا القرن رأي العقاد وهيكل وطه حسين والمازني أن ينقلوا إلى قرائهم مباحث

الأدب والنقد العربي ويشفعوها بنظرات تحليلية في المفكرين الغربيين وكان سببا في ظهور ملاحق أدبية للصحف اليومية.

فاخرج حسين هيكل السياسة الأسبوعية وأخرج العقاد جريدة البلاغ الوفدية ونتج عن ذلك نهضة أدبية واسعة وأخذ هؤلاء الكتاب يجمعون مقالاتهم الممتازة وينشرونها[12].

كاتب جرئ

في القرن العشرين ساءت الظروف السياسية ففي وسط ذلك العراك الوطني، كان عقاد جالسا في إحدي المقاهي فمر بائع الصحف فاشتري منه العقاد إحداها وجال فيها نظره فوقع على اسم العلامة الأستاذ " محمد فريد وجدي" وهو يعلن خلال صفحات تلك الصحيفة عن رغبة أكيدة في إصدار صحيفة باسم " الدستور" وعن حاجته إلى محرر يشترك معه في إعدادها والإشراف على تحريرها، فتناول العقاد ورقة وشرع في كتابة رسالة للأستاذ يرشح فيها نفسه بالتحرير معه في "الدستور" و بعد يومين تلقي الرد منه بالقبول وطلب منه مقابلته في تمام الساعة السادسة بدار مطبعة الواعظ، و في الموعد ذهب العقاد إليه ودخل دار الواعظ فوجد الأستاذ وجدي جالسا يتحدث مع صاحبها، فدني منه وحياه وأعلن له عن نفسه فنظر إليه العلامة نظرة فاحصة ثم أخرج ساعته من جيبه و نظر فيها فإذا بها تشير إلى السادسة تماما من مساء ذلك اليوم وطلب له كرسيا وأجلسه على يمينه ثم سأله عن مطالعاته في مؤ

لفاته التي أشار له إليها في رسالته و دخل معه في نقاش علمي كبير، فتعجب العلامة من دقة ملاحظات الفتي بالنسبة لمؤلفاته، فاختار صحيفة من الصحف التي كانت على مكتب صاحب المطبعة وبادر الفتي سائلا بعد ان أشار إلى مقال فيها بالذات: هل قرأت هذايا سيدي عباس؟

فنظر العقاد إلى المقال الذي يشير الصحفي الكبير وكان عبارة عن رحلة لكاتب ذلك المقال في العاصمة الفرنسية، كان قد اطلع عليه من قبل فأجابه قائلا: أنا لم اذهب إلى باريس ولكن موضع العجب عندي أن الكاتب لم يطرق منها غير " الحي اللاشيني" و لم يعرف في الحي اللاشيني غير معارض الخلاعة والمجون. فهل هذه هي باريس؟ فضحك الصحفي العلا مة ضحكة تنم على كل ما في طوية نفسه من براءة طيبة كبراءة الطفولة. ومنذ تلك الليلة اعتبرالعقاد نفسه محررا بصحيفة الدستور[13].

فقد كان يكتب قبل ذلك " للجريدة " التي كا ن يصدرها أستاذ الجيل، كما كان يكتب في صحيفة "الظاهر" التي كان يصدرها " أبو شادي" المحامي، و كذلك كان يكتب في "المؤيد " و "اللواء" بل كا ن أول شعر نشر له على صفحات اللواء إلا أن كتاباته لتلك الصحف و المجلا ت كانت أشبه بعلاقة الكتاب من منازلهم لا أكثر ولا أقل.

وجد العقاد في الدستور ميدانا فسيحا فأجري العقاد أول حديث صحفي عرفته الصحافة مع سعد زغلول حينما كان وزيرا للمعارف. فقد تعرض سعد

زغلول في تلك الآونة لحملة مغرضة تقصد النيل منه و روح المغرضون أنه – أي سعد– حارب فكرة الجامعة و التعليم باللغة العربية.

و ربما كان دافع إعجاب العقاد بالزعيم هو الذي دفعه للقيام بهذا التحقيق الصحفي الأول في تاريخ الصحافة المصرية بغية الرد على خصومه، فاتخذ من ذلك الحديث معه وسيلة لد فع تلك الشبهات بالأسا نيد الرسمية .

ونشرت الدستور حديث العقاد محررها مع سعد زغلول رغم أنها من صحف الحزب الوطني الذي كان آنذاك يقف على طرفي نقيض بالنسبة لسعد زغلول ولكن إيمان صاحبها بحرية النشر جعله لايجد حرجا في نشر ذلك الحديث، وأحدث الحديث قوة عرفها الذين عاصروا الصحافة في تلك الحقبة من التاريخ الوطني.

واستمر العقاد يحرر في الدستور الكثير من مقالاته في الأدب و الفلسفة والاجتماع والسياسة، ولاشك أن التقاء العقاد في دور النشأة والتكوين برجل ك"فريد وجدي" كان له أثر بالغ في حياة العقاد بعد ذلك.

ولم تخل صفحات الدستور آنذاك من بعض قصائد للعقاد ولكنها لم تجنح إلى المديح كما كانت قصائد غيره من الشعراء آنذاك تملقا لأصحاب السلطان.

لا شك فيه أن عباس محمود العقاد من الشخصيات الفذة التي تصعب الإحاطة بشتي مقوماتها، فهو من ناحية العلم والثقافة بحر يزخر بشتي فروع المعرفة، على دقة في التفهم ودقة في الأداء وعلى سيطرة على الموضوع وهيمنة على الفكرة والكلمة وهو من ناحية المقدرة الذهنية توقد في الذكاء،

وبعد في اللمح وامتداد في الرؤيا، وعمق في النظرة وهو من ناحية الخلق صلابة لاتلين، وعقيدة لاتهي، ورصانة تأبي التبذل، ووقار يأبي السخف، وتقيد بنظام الحياة لايحيد عنه وتمسك بالحرية والديمقراطية، والروح الإنسانية لاترضي الاستهانة بذرة من ذراتها، وهو من ناحية الوطن رجل الوطنية الصادقة التي لاتقبل مجاملة ولازلفي، ورجل العروبة الحقة التي تتحلي بسمو الأخلاق وصدق التعاون، وهو أخيرا رجل التدين الصادق الذي يكره التعصب والتزمت وجعل الدين مطية للأطماع والأحقاد، قال شوقي ضيف " ملكات العقاد العقلية لاتطغي على ملكاته الروحية، بل هو يلائم بينها القسطاس الدقيق، ولعل أول ما يبدو من ملكاته الأخيرة نزوعه القوي نحو المثل العليا في الفضائل النفسية والمزايا الفكرية، مزدريا في سبيلها متع الحياة حتي متعة الزواج وإنجاب الولد. وقد ظل يعلى على تلك المتع متاع الضمير، ومتاع الخلق الكريم ومتاع الفكر ومتاع الذوق والشعور مقتنعا من مطالب العيش بما يكفيه وهو لايقيس الحياة الصحيحة بمقياس المادة والجسد، انما يقيسها بمقياس الروح والعقل ومقاصدهما المثالية[14].

* * *

الفصل الثاني

مساهمة العقاد في النقد العربي

العقاد الناقد

كلنا نعلم أن النهضة الأدبية المعاصرة قد ابتدأت تؤتي ثمارها في النصف الآخرمن القرن الماضي، وأن تلك الثمار كانت شعرا، وقد مهدت لتلك النهضة عدة عوامل، من المؤكد أن أهمها كان بعث التراث العربي القديم بفضل فن الطباعة الحديثة الذي وفد إلى مصر منذ الحملة الفرنسية، ولما كانت كل نهضة أدبية لابد أن تصاحبها نهضة مماثلة في دراسة الأدب ونقده وكان هذا الناقد العقاد.

عالج العقاد النقد تدفعه إليه ببيئته، وانفتاحه على العالم الحديث، وغيرته على اللغة وآدابها وعلى الأمة العربية وقضاياها، وقد تشعب نقده فكان منه السياسي والاجتماعي، وكان منه الفكري والأدبي، ونحن نجد هذا النقد الأدبي في كثير من كتبه ومن مقالاته الصحفية، والعقاد تأثر بالأدب الإنكليزي في شعره، وفي نظرياته الأدبية، وفي نقده، وكانت تعجبه طريقة "هازلت" أمام المدرسة الحديثة الإنكليزية في النقد، وتعجبه صراحته الجريئة، ونزاهته التي لاتحابي ولاتجامل، وكان هدف العقاد في نقده الأدبي توجيه الأدب الحديث توجيها جديد ا إنسانيا، وهويقول" أطلب من الشعر أن يكون عنوانا للنفس الصحيحة، ثم لايعنيك بعد ذلك موضوعه ولا منفعته، ولا تتهمه بالتهاون اذا لم

يحدثك عن الاجتماعات والحماسيات، والحوادث التي تلهج بها الألسنة، والصيحات التي تقف بها الجماهير"[15]، وتمثيل البيئة في نظره، ليس من الشرائط الشاعرية. وهو يري أن القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه، والصورة بأجزائها، واللحن الموسيقية بأنغامه، فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته[16].

والعقاد ينكر في الشعر الإحالة أي الإعتساب والشطط، والمبالغة التي تخالف الحقائق والخروج بالفكر عن المعتدل، وما إلى ذلك مما يخرج الشعر عن حقيقته الجمالية، أما هذه المقاييس فهي في جملتها ثلاثة: اولها: أن الشعر قيمة إنسانية، وليس بقيمة لسانية، ثانيها أن القصيدة بنية حية وليست قطعا متناثرة يجمعها اطار واحد، وثالثها أن الشعر تعبير، وأن الشاعر الذي لايعبر عن نفسه صانع وليس بذي سليقة إنسانية.

وتعاون العقاد والمازني وعبد الرحمان شكري على مناهضة أرباب المدرسة الشعرية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين والتي ردت إلى الشعر العربي ديباجته المشرقة وحررته من الشكلية التصنيعية ومن الابتذال ووجهته شطر الحياة الجديدة في السياسة والاجتماع، وقد اتهم العقاد ورفيقاه هذه المدرسة بأنها لم تحقق الخطوةالتقدمية المرجوة، وهم يرون أن الشاعر يجب أن يعبر عن روح أمته وعن نوازع نفسه ودوافعها الإنسانية وعن الطبيعة وحقائقها الكونية، وهو في تعبيره عن روح أمة لايقف عند الظواهر والأسماء والتواريخ والأحداث، بل ينفذ إلى ضميرها الداخل

شاعر بقومه في جميع ماينظم من موضوعات حتي في مظاهر الطبيعة وعواطفه الإنسانية، وهي صورة لابد أن تعود للشاعر فيها حريته، فلا يتقيد بالصياغة القديمة ولابنقوشها الزخرفية، انمايتقيد بأداء المعاني في عباراتها الصحيحة التي تستوفيها[17].

والعقاد يحمل حملة عنيفة على أحمد شوقي ويري فيه صيقل الألفاظ ويري أنه لايلتمس في شعره التعبير الصادق عن النفس ازاء الحياة والكون، وأن القصيدة عنده ليست بنية حية متماسكة.

وهكذا كان العقاد في نقده رجل الكلمة الحرة، والرأي الجرئ، وإن بدا في حملاته على أحمد شوقي وجماعة من الشعراء المقلدين بعض التفريط والحدة والقسوة والعنف، وقد أفادت حملاته هذه فحاول الشعراء أن ينهجوا في شعرهم منهج التجديد وحاولوا أن يتحرروامن القيود وإن تجاوز تحررهم أحيانا حدود المعقول[18].

للعقاد أبحاث في موضوعات شتي نتوقف منها عند إحدي الدراسات الأدبية التي بلغ فيهاشأوا عظيما، وهو نهج في الدراسة الأدبية منهجا خاصا، وأن هذا المنهج قائم على ما يؤمن به العقاد من أدب الأديب انما هو صورة نفس صاحبه وتاريخ حياته العاطفية، وأن عمل الناقد هو البحث عن الأديب في أدبه واستخراج صورته النفسية من هذا الأدب، اذ أن الشاعر الذي لايعرف بشعره لايستحق أن يعرف وهذا هو المنهج الذي استخدمه العقاد في الدراسة عن ابن الرومي كما يشهد اسم كتابه نفسه وهو " ابن الرومي- حياته من

شعره" وهو الكتاب الذي فتح بابا جديدا في الدراسات الأدبية وحول انظار الباحثين إلى الأبعاد النفسية في الأدب، قال العقاد في مقدمة الكتاب " هذه ترجمة وليس بترجمة لأن الترجمة يغلب أن تكون قصة حياة، وأما هذه فاحري بها أن تسمي صورة حياة، ولأن تكون ترجمة ابن الرومي صورة خير من أن تكون قصة لأ ن ترجمته لاتخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال، ولكننا اذانظرنا في ديوانه وجدناه مرأة صادقة، ووجدنا في المرأة صورة ناطقة، لانظير لها فيما نعلم من دواوين الشعراء، وتلك مزية تستحق من اجلها أن يكتب فيها كتاب"[19].

ولئن أهمل الباحثون الأقدمون ابن الرومي ولم يرقهم اسلوبه في الشعر والاستقصاء التحليلي في قصائده، فقد اكتشف العقاد في هذا الرجل معني الشاعرية الحقة، وأظهر للناس وللعلماء ما التفتت إليه الأنظار والعقول، قال " ليس من الصدق للتاريخ ان يقال أن ابن الرومي كان خاملا بذلك المعني الشائع من الخمول، ولكنه مع هذا كان خاملا، وكان خموله أظلم خمول يصاب به الأدباء، لانه الخمول الذي يحفظ ذكر الأديب، ولكنه يخفي اجمل فضائله واكبر مزاياه، وهذاهو الحيف الذي اصاب ابن الرومي، ولا يزال يصيبه عند نا بين جمهرة الأدباء والمتأدبين".

وقد عمل العقاد في دراسته القيمة على ايضاح الطبيعة الفنية عندابن الرومي، فدرس نفسيته وملكاته وعبقريته وفلسفته، ووجد عنده المبادي والمقاييس الشعرية التي وضعها لمدرسته التجديدية، اذ وجد أن الشاعر وفنه شئ واحد، لاينفصل فيه الانسان الحي من الانسان الناظم، وإن موضوع حياته

هو موضوع شعره، وموضوع شعره هو موضوع حياته، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه، يخفي فيه ذكر الاماكن والازمان، ولايخفي فيها ذكر خالجة ولاهاجسة مماتتألف منه حياة الانسان.

وهكذا يفتح العقاد بدراسته هذه أفاقا جديدة امام الدارسين والباحثين، ويرفع ابن الرومي إلى مرتبته الفنية التي تميز بها شعره وينهض بذلك في وجه التيارات التحليلية القشورية ويقول بملء فمه وملء قلمه إن ابن الرومي هو الشاعر من فرعه إلى قدمه، والشاعر في جيده ورديئه، والشاعر في ما يحتفل به وفي ما يلقيه على عواهنه، وليس الشعر عنده لباسا يلبسه للزينة في مواسم الأيام، والا لباسا يلبسه للابتذال في عامة الأيام، كلا! بل هو! اهابه الموصول بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه، فللردئ منه مثل ما للجيد من الدلالة على نفسه، والإبانة عن صحته وسقمه، بل بما كان بعض رديئه أدل عليه من بعض جيده، وأدني إلى التعريف به والنفاذ إليه لأن موضوع فنه هو موضوع حياته.

وهكذا كان العقاد في دراسته رجل التحقيق العميق ورجل الفكر الثاقب، وان كان تجاوزت احيانا استناجاته دائرة مقدماته، وكان هو وطه حسين رائدي الفكر الحديث في الأدب العربي.

الدعوة إلى التجديد

وأبرز ماظهرت فيه ملكة الاستاذ عباس محمود العقاد النقدية منذ مطلع حياته كانت الدعوة إلى التجديد في الشعر الغنائي الذي يتكون منه التراث

الشعري التقليدي، وهي دعوة كان العقاد وصاحباه شكري والمازني قد تأثروا فيها بلا ريب بحصيلتهم من الشعر الغربي وبخاصة الإنجليزي منه، وباتجاهات الثقافة والنقد عند الغربيين وإن يكن من العدل أن نقر للأستاذ عباس محمود العقاد بنوع خاص بقدرته الفائقة على تمثل جميع ما يقرأ أو هضمه حتي يستحيل إلى جزء من ذاته ومن العناصر المكونة الشخصية الثقافية والأدبية، حتي ليصعب أن يرجع هذا الرأي أو ذاك من أرائه إلى هذا الأديب أو المفكر الغربية أو ذاك، فالعقاد من القوة بحيث يطبع جميع أرائه بطابعه الخاص وكأنها منبعثة عن ذاته تلقائيا حتي لنحس بأن الرجل لم يجانب الصواب عند ما قال عن نفسه في مقدمة مجموعة "مراجعات في الأدب والفنون". "لو أن للخواطر يوم بعث ترد فيه إلى مناشئها لخلت أنها ستبعث معي في جسد واحد يوم ينفخ في الصور الموعود، أو لعادت معي حيث كنا في الحياة و لو كان لها ألف شبه يربطها بأراء المرتئين وكتابات الكاتبين، فانما أنا قد عشتها وغذوتها فلاتخيلني قائما بغيرها، أو يتخيل رأسه ويديه وقدميه وسائر جوارحه راجعة يوم القيامة إلى جثمان غير جثمانه، انني لااحسب تفكير الانسان إلاجزءا من الحياة ونوعا من الأبوة وكل هذا حق إلى حد كبير، وبه يختلف العقاد فيما نري عن صاحبيه، وبخاصة عن المرحوم المازني الذي ثارت بينه وبين زميله شكري وغيره من الأدباء والنقاد مناقشات حادة حول السرقات الأدبية، أو أبوة بعض الفصول القصصية وبخاصة في قصة "إبراهيم الكاتب""[20].

كانت الدعوة إلى التجديد في الشعر الغنائي قد كانت دعوة مشتركة بين العقاد وشكري والمازني فحسب بل وبين شعراء المهجر وبخاصة ميخائيل

نعيمة ثم الشاعر الكبير خليل مطران، ولكن العقاد انفرد بها داخل هذه الجماعة، واستفحلت عنده فيما بعد الدعوة إلى شعر الفكرة أو الشعر الفلسفي، دفاعه الحار عنها في مقدمة ديوانه "ما بعد الأعاصير" وفي عدد من مقالاته الأساسية في مجموعة "مطالعات في الكتب والحياة" و مجموعة "ساعات بين الكتب" التي تتضمن ثلاث مقالات في مناظرة بينه وبين الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي، وأخيرا يقول في مقالة كبيرة عن المتنبي الحقيقة أن الفكر والخيال والعاطفة ضرورية كلها للفلسفة والشعر مع اختلاف في النسب، و تغير في المقادير، فلابد للفيلسوف الحق من نصيب من الخيال والعاطفة ولكنه أقل من نصيب الشاعر، ولا بد للشاعر الحق من نصيب من الفكر ولكنه أقل من نصيب الفيلسوف، فلا نعلم فيلسوفا واحدا حقيقيا بهذا الأسم كان خلوامن السليقة الشاعرية، ولا شاعرا واحدا يوصف بالعظمة كان خلوامن الفكر الفلسفي، كيف يتأني أن تعطل وظيفة الفكر في نفس إنسان كبير القلب، متيقظ الخاطر مكتظ الجوانح بالاحساس كالشاعر العظيم؟ إنما المفهوم المعهود أن شعراء الأمم الفحول كانوا من طلائع النهضة الفكرية ورسل الحقائق والمذاهب في كل عصر نبغوا فيه فمكانتهم في تاريخ قديم المعارف والأراء لايعفيه ولايغص منه مكانهم في تواريخ الأداب والفنون. ودعوتهم المقصودة أو اللدنية إلى تصحيح الأذواق وتقويم الأخلاق لاتضع سدي في جانب أنا شيدهم الشجية و معانيهم الخيالية، هكذا كان شكسبير شاعرا ناطق الفكر حتي في أغانيه الغزلية وهكذا كان جيته وشللر وهايتي شعراء الألمان الفلاسفة في استعدادهم وسيرة حياتهم، و فيما يستقري من مجموعة أعمالهم وهكذاكان بيرون وورد زوبرث

وسوينبرن من الشعراء المجاهدين في أغانيهم، المغنين في جهادهم، وهكذا كان من قبلهم جميعا دانتي اللحيري امام النهضة الإيطالية، بل هكذا كان شاعر عظيم في أية لغة وفي أية قبيل[21].

نقد الشعر الغنائي

الواقع أن الحركة النقدية الجديدة في الأدب العربي المعاصر، قد تركزت كلها أو كادت في نقد ما نسميه شعر القصائد ويسميه الغربيون بالشعر الغنائي وذلك لأن هذا الفن يتكون من الجانب الأكبر من التراث الأدبي، كما أنه الفن الذي ابتدأت فيه حركة البعث الأدبي بفضل محمودسامي الباردي، وإذا كان الأدب المعاصر فد أخذ يشهد فنونا أخري وفدت إلينا من الغرب كفن المسرحية الشعرية والنثرية، وفن القصة والأقصوصة، وفن المقالة والسيرة الحديثة المنهجية فان كل هذه الفنون قد ظلت زمنا طويلا بعيدة عن اهتمام النقد والنقاد الجادين حتي نري العقاد نفسه يزدري فن التمثيل فنجد في مقال له بعنوان "التمثيل في مصر" منشور في كتابه "مطالعة في الكتب والحياة" و فيه يرد على قارئ يسأله لماذا لايعني بفن التمثيل؟ فيجيبه العقاد أن في عالم الأدب وعالم السياسة ما يشغل كل وقته، وهو وإن كان لايكره التمثيل ولايبخسه قدره إلاأن التمثيل في مصر مقتلة للوقت بل مذبحة طائشة يذهب فيها دم البرئ المظلوم جهارا و ليلا و نهارا وما من حسيب ولا رقيب.

وعلى ضوء هذا نستطيع أن نفهم كيف أن ناقدا مثقفا كالاستاذ العقاد لم يحاول في دعوته إلى التجديد الأدبي أن يطالب بتوسيع مجال هذاالأدب، وتنويع فنونه، وأخذ ما نعرفه منها عن الغربيين الذين استطاع العقاد أن يتصل بأدابهم بفضل إتقانه للغة الانجليزية، وذلك في حين نري شاعرا ارستقراطيا تقليديا كأحمد شوقي يتفتح نفسه منذ شبابه الأول لفن كبير كفن المسرح فيكتب منذ عام 1893م حتي وفاته وعندئذ فقط ابتدأ العقاد الناقد يحس بأن ما يؤلف في هذا الفن يستحق النقد بدليل الكتيب العنيف الذي كتبه العقاد عندئذ في نقد مسرحية[22].

و أما المجال النقدي الذي شغل العقاد منذ مطلع حياته فقد كان مجال الشعر الغنائي الذي يلوح لنا أنه المجال الذي يحرص عليه العقاد أكبر الحرص، ويؤد أن يذكر به شاعرا وناقدا، بل هو المجال الذي خاض فيه العقاد معارك النقدية العاتية و بخاصة معركته العنيفة مع أحمد شوقي.

نظرية الشعر

النظرية العامة التي يلوح أن الاستاذ العقاد قد تحمس لها، هو وزميلاه شكري والمازني رواد دعوة التجديد في الشعر المعاصر هي النظرية التي تطالب بأن يكون الشعر تعبيرا عن وجدان الشاعر وحياته الباطنية أي صورة لنفسه، فهو يقول في مقدمة كتابه "ابن الرومي حياته من شعره" عن الطبيعة

الفنية أن تمامها انما يتحقق بأن تكون حياة الشاعر وفنه شيئا واحدا لاينفصل فيه الانسان الحي عن الانسان الناظم، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره، وموضوع شعره هو موضوع حياته، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه، يخفي فيها ذكر الأماكن والأسماء ولايخفي فيها ذكر خالجة ولاهاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان[23].

وهو يبلغ بهذا الرأي أقصاه عندما يقول في مقال بمجموعة "ساعات بين الكتب" إنه اذا لم حياة الشاعر من ديوانه فما هو بشاعر، ولو كان له عشرات الدواوين.

والذي لاشك فيه أن الأستاذ العقاد انساق إلى هذه النظرة المتحمسة لشعر الوجدان الذاتي بالدعوة التي قادها هو وزميلاه لتجديد الشعر العربي المعاصر ثم باتجاهه النفسي في البحث الدائم عن خلجات النفس البشرية ومحاولة اكتشاف شخصيات الأدباء من خلال انتاجهم الأدبي وذلك بالرغم مما في هذه النظرة من اسراف. فهناك ضروب من الشعر يختفي فيها الشاعر ويجب أن يختفي، كالشعر الملحمي والشعر التمثيلي بل أن الشعر الغنائي نفسه منه ما لانعثر فيه على شخصية الشاعر بطريق مباشر بل نتلمس عنها بعض اللمحات من نظرته إلى الأشياء والناس ومن اسلوب عرضه عندما نحس أن هذا الشاعر أو ذاك – مثلا– متفائل أو متشائم، وعاطفي انفعإلى، أو تهكم ساخر، وأما الشعر الذي يتخد الشاعر نفسه محورا له فهو الشعر الرومانسي وحده. ومن المؤكد أن العقاد نفسه قد قال كثيرا من الشعر غير الشخصي الذي لانعثر فيه على

شخصيته بطريق مباشر وكل ما نستطيع أن نستشفه منه هو الحالة النفسية التي صدر عنها وفلسفة الحياة التي يريد أن يوحي لنا بها.

مجال الشعر

وتأسيسا على هذه النظرية العامة كان من الضروري أن يطالب العقاد كل شاعر بأن يصدر عن طبعه، وأن لايحاول القول فيما يتعارض مع هذا الطبع حتي يأتي شعره صورة لروحه، وهذه النتيجة المنطقية نستطيع أن نطالعها في مقدمة كتاب "ابن الرومي" حيث يقول: "إن مزايا الشعر كثيرة تتفرق بين الشعراء ويتفرق الاعجاب بها بين القراء، وقد يحرم الشاعر إحداها أو اكثرها، وهو بعد شاعر لاغبار عليه لأنه يخطو نمطا من الشعر يقيم به الشاعرية، كالجمال في الحسان يروقنا في كل وجه بلون وسمه وهو في جميع الوجوه رائق جميل وكاللحمة الواحدة من ملامح الجمال تحلو في هذا الوجه وتحلو في ذاك، ولاتشابه بينهما في غير الحلاوة ففي العيون ألف عين جميلة لاتشبه الواحدة أختها، ولاتتفق اثنتان منها في معاني النظرات ومحاسن الصفات وليس هناك الإجمال واحد عند الكلام على جوهر الجمال"[24].

وهذا حق ومتسق مع نظرة العقاد العامة للشعر، ويقول في حد الشاعر العظيم في مقال له عن المتنبي في مجموعة "مطالعة في الكتب والحياة".

ومن الشعراء من يطربك متغزلا أو يعجبك واصفا أو من يشجوك شاكيا أو رائيا، أو من تستمع له فتحلولك نغمته في بعض مذاهبه، ولكنك لا تلقي عنده مستمعا في غير الباب الذي تستحسنه منه، فهؤلاء الشعراء تستريح النفس إليهم في حالة من حالاتها وتتسلي بهم في بعض نوباتها غير أنها لاتشعر بعظمة فيهم حين تنصت إليهم، وهي على حق فيما تراه، فان الشاعر الذي لايخاطب النفس إلا من ناحية واحدة كالآلة الموسيقية التي ليس فيها غير وتر فرد فهي تنطق بصوت واحد من أصوات تلك الحياة ولكنها لاتتسع لتمثيل روايتها الكبري بأصواتها المنوعة وأصواتها المختلفة والمتجاوبة.

موضوعات الشعر عند العقاد

وعندما ننظر في مجالات الشعر وموضوعاته التي طرقها العقاد نفسه في دواوينه العديدة نميل إلى الإعتقاد بأن العقاد قد آثر لنفسه الضرب على سائر النغمات، فله الشعر الفلسفي والشعر العاطفي وشعر المناسبات التقليدية، بل ونراه يحاول أن يكتشف موضوعات جديدة للشعر على نحو ما فعل في ديوانه "عابر سبيل" حيث يحدثنا أن في الحياة العادية وفي الشوارع والحوانيت أشياء كثيرة تصلح لأن تكون مادة للشعر مثل الفواكه المكدسة في الحوانيت – أو القرود الحبيسة في حديقة الحيوان، وقد نظم هذا الديوان كله في هذه الأشياء وأشباهها[25].

وإنه إن يكن هناك خلاف شديد بين الشعراء والنقاد حول موضوعات الشعر ومايصلح منها ولايصلح لأن يكون مادة لهذا الفن الجميل، إلا أن هناك

مع ذلك اجماعا على أن النظم في موضوع قبيح أو تافه بطبيعته لايمكن أن يصبح شعرا، اي فنا جميلا إلا اذا استطاع الشاعر أن يضفي الجمال على ما يصف وأن ينتزعه منه حتي تهتز له النفس أو تطمئن حاسة الجمال، وذلك إما بفضل الصور الشعرية التي ينحتها الشاعر من اللغة عند وصفه لشئ تافه، وإما بفضل المشاعر الجميلة الخيرة التي يضيفها الشاعر على الشئ القبيح أو المؤلم، اي بفضل المشاركة الوجدانية التي تجمع بين الشاعر وبين مايصف.

ووصف الأشياء العادية التي تبدو تافهة لم يبتكرها العقاد في الشعر العربي، واكبر الظن أن ابن الرومي هو الذي وجهه هذه الوجهة، وبخاصة ان ابن الرومي كان من الشعراء المفضلين الذين تناولهم العقاد، ولابن الرومي في شعر المشاهدات اليومية العادية – اي شعر عابر السبيل – مقطوعات فنية رائعة مثل وصفه للخباز وغيره، ولكن العقاد لايستطيع أن يتمهل عندما يصف ليخلق شيئا من لاشيئ، و ينحت الصورة الجميلة من الحركات التافهة، كما يفعل ابن الرومي، بل نراه يفر من موضوع وصفه إلى التداعي وهو تداع لايسوقه الخيال الشعري ولاالفيض العاطفي بل يسوقه الفكر والعقاد بطبيعته رجل فكر قبل كل شئ، وكثير ما يأتي تداعيا متلمسا مجتلبا قد يدل على براعة، ولكنه لايدل على شاعرية مصورة أو عطف انساني عميق وقد أثر العقاد أن يتحدث عن الأشياء والحيوانات عن أن يتحدث عن الناس وحياتهم، وما كان له أن يصدر عن تلك النزعة التي يعاديها في العنف، كما حاول العقاد أن يقول الشعر على لسان "عابر سبيل" فانه اراد ايضاأن يوجه الشعر والشعراء وجهة

جديدة يقول إنها الوجهة المحلية الواجبة، وهي وجهة التغني بالكروان بدل البلبل الذي يؤكد الاستاذ العقاد أنه لم يسمعه ولا رأه قط في بلادهم[26].

ومع ذلك أن الاستاذ العقاد كان اكثر توفيقا، وأسد توجيها في حديثه عن مضمون الشعر، و اكثر من حديثه عن موضوعات الشعر ومجالاته، فهو قد صحح بلاريب تصحيحا سليما ما فهمه بعض الأدباء والشعراء التقليديين من دعوته هو وزميليه إلى التجديد، وقد صحح أيضا بعض المقاييس القديمة أو على الأصح ناصر من القدماء من يستحق المناصرة في ضوء الثقافة المصرية الواسعة.

العقاد والشعر

للعقاد عدة دواوين شعرية منها "يقظة الصباح" و "وهج الظهيرة" و "اشباح الأصيل" و "أشجان الليل" و "وحي الاربعين" و "هدية الكروان"، و قد عالج فيها موضوعات مختلفة، وهو لا يري شيئا غير قابل لأن يكون موضوعا للشعر وذلك بشرط ان يكون ذا صلة بشعور الشاعر. ونحن لا نكاد نلم الجزء الأول من ديوانه، شعر هو ثمرة لقاح الآداب العالمية والعربية في النفس المصرية الشاعرة الصادقة الحس، المرهفة الشعور"[27].

والعقاد في شعره يحاول أن يخرج من النطاق التقليدي للشعر العربي، ولايرضي بأن يكون هذا الخروج في الصياغة وحدها. وأهم الموضوعات التي يكثر من التوقف عندها الطبيعة والحب، فالطبيعة في شعره ذات صلة بالكون والكون هو في قلب الشاعر. والشاعر في قلبه، والحب عنده ليس جمالا في

الوجه، وسوادا في العين، رقة في الخصر، وما إلى ذلك من الصفات الجسدية. بل هو سمو في الروح وطيب في الشمائل.

قال شوقي ضيف: "تزعم العقاد اول مدرسة جددت الشعر تجديدا واضحا مستقيما، وهو تجديد فتحت فيه نوافذ شعرنا على الآداب العالمية، وزالت عنه غشاوات التقليد. واندفع ليمثل الروح المصري العربي الأصيل متغنيا ببواطن السرائر إزاء الإنسان والكون متأملا في الحياة والوجود، نافضا عنه الصورة التقليدية الحسية القديمة، مفضيا إلى صورة معنوية جديدة تموج بالمشاعر الوجدانية والتأملات العقلية، ولم تعد الوحدة في البيت، بل أصبحت الوحدة القصيدة بنظامها المتساوق الذي تتواصل فيه الأبيات وتتداخل كما تتداخل الخيوط في النسيج، بل تتخلق كما تتخلق الأعضاء في الكائن الحي"[28].

* * *

الفصل الثاني

أعمال العقاد وآثاره الأدبية

لعباس محمود العقاد ديوان شعر في أربعة أجزاء، صدر عن مطبعة المقتطف بالقاهرة سنة 1929م، و له مولفات كثيرة في النثر نذكرمنها "ابن الرومي"(1931م) و"أبو نواس الحسن بن هاني" (1960م) و"سعد زغلول" (1936م) و"هتلر في الميزان"، وله إلى ذلك سلسلة "العبقريات" وغيرها، وقد اصدرت دارالكتاب العربي ببيروت سنة 1971م مجموعة خاصة بمؤلفات العقاد الاسلامية بعنوان "موسوعة محمود العقاد الاسلامية"في 8 مجلدات. و في سنة 1974م أصدرت دارالكتاب اللبناني في بيروت "المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد" في 22 مجلدا.

وها إننا نعرض لهذه المجموعة الضخمة محاولين أن ننبش بعض كنوزها وأن نتوقف عند بعض مكنوناتها:

1. المجلدات الأربعة الأولي انطوت على سير لبعض عظماء الإسلام، وكانت بعنوان"العبقريات الإسلامية": 1- عبقرية محمد، عبقرية الصديق، عبقرية عمر، 2- عبقرية الإمام على، الحسين ابوالشهداء، فاطمة الزهراء والفاطميون، 3- عثمان بن عفان، الصديقة بنت الصديق، عبقرية خالد، 4-عمر ابن العاص، معاوية بن ابي سفيان، داعي السماء بلال.

2. المجلدات الأربعة 5 و6 و7 و8 بعنوان "الإسلاميات" تنطوي على: حقائق الإسلام واباطيل خصومه، التفكير فريضة إسلامية، الديمقرطية في الإسلام- الإسلام دعوة عالمية، الإسلام في القرن العشرين، مايقال عن الإسلام – الفلسفة القرانية، مطلع النور، الإنسان في القران – المرأة في القران، الإسلام والحضارة الإنسانية، الإسلام والإستعمار.

3. المجلدان التاسع والعاشربعنوان "الفلسفة الإسلامية " و " الحضارة الإسلامية " ينطوي الأول منهما على: الله، الشيخ الرئيس ابن سينا، ابن رشد، الغزإلى- و ينطوي الثاني على: اثر العرب في الحضارة الأوربية، الثقافة العربية، القرن العشرين.

4. المجلدات الأربع 11و 12و 13 و 14 بعنوان " العقائد والمذاهب " تنطوي على: ابو الأنبياء، حياة المسيح، عقائد المفكرين – مجمع الأحياء، الإنسان الثاني، هذه الشجرة، ابليس – الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام، افيون الشعوب، لاشيوعية ولا إستعمار – الحكم المطلق في القرن العشرين، الصهيونية العالمية، النازية والأديان، هتلر في الميزان، فلاسفة الحكم في العصر الحديث.

5. المجلدات السبع 15 و 16 و 17 و 18 و 19 و 20 و 21 بعنوان "تراجم وسير" تنطوي على: ابن الرومي، ابوالعلاء- ابو نواس، شاعر الغزل عمر بن ابي ربيعة، جميل بثينه، جحا الضاحك المضحك- الإمام محمد عبده، عبدالرحمان الكواكبي، رجال عرفتهم – سعد زغلول –

تذكار جيبي، التعريف بشكسبير، فرنسيس باكون، برنارد شو – شاعر اندلسي وجائزة عالمية – بنجامين فرنكلين، سن ياتسن ابو الصين.

6. المجلد 22 بعنوان " السيرة الذاتية "[29].

7. يتجلي لنا من هذه النظرة الأولي على مجموعة أثار العقاد ان الرجل اراد ان يكون موسوعيا في دراساته، فعالج قضايا كثيرة و شديدة التنوع، واراد ان يكون في ذالك عالم تاريخ وعالم أديان وفيلسوفا واديبا وناقدا وسياسيا وعالم اجتماع، ولو لاالقليل لامتد نظره إلى العلوم الرياضية والبيولوجية وغيرها، وقد اعتمد في الكثير من دراساته المبادئ السيكولوجية، و اسلوب التشريح النفسي، وطريقة التتبع والتقصي هذا كله جعل الكثيرين من العلماء يقفون منه موقفا مزيجامن اعجاب وتعجب، ولا سيما في هذا العصر الذي لم يعد بإمكان إنسان أن يكون في علمه ودراساته كل شي، فالتوسع الأفقي إلى هذا الحد معرض لكثير من الأوهام، ومعرض لأن يقف العلماء منه موقف الحذر والحيطة، ولاسيما و أن العقاد التزم نهجا في التفكير التزاما، و ذهب في التزامه أحيانا مذهب التحدي العنيد، حتي لتحسبه في خصومة مع المستشرقين ومع المفكرين الإنفتاحيين من أبناء قومه، وحتي لتحسبه في موقف دفاع، يقارع و يفند ويمضي في بسط أراءه و يمضي في تحليلاته و كأنها لا تخضع لنقاش، ولا تتسع لرد، و قوة العقاد و ضعفه في هذا الموقف، ولاسيما أن موضوعاته شديدة التنوع، شديدة التشعب، ولاسيما و أنه من الالتزاميين الذين يعتمدون من المصادر مايتمشي و نزعاتهم،

و يتصرفون في القول تصرف المحاضر الأكاديمي الذي يلقي على الناس أقواله و كأنها أقوال اليقين، أو دروس السادة المعلمين.

و هذه النزعة، وان كانت ثمرة الشخصية الفذة والمتفوقة، لم تجنب العقاد مغالطات قبيحة،و استنتاجات تعسفية يأباها المنطق العلمي السديد. من ذلك مثلاً أنه في كتابه "التفكير فريضة إسلامية" يعرض لعلم المنطق، فيبدأ بالتفريق بينه و بين الجدل، والإعلان ان الجدل هو الخطاب الإقناعي(البرهان الخطابي)، وأنه هو السفسطة، ثم يا خذ في المعالجة لإظهار ما للجدل من اثر سيئ في المجتمعات والمذاهب، و ينتهي إلى ان" فتنة الجدل ومصطلحاته الكلامية انتقلت إلى المسلمين من أمم غربية على أيدي التراجمة الدخلاء فتسربت إلى الأذهان شبهات كثيرة من أمرها وعلى كثرة الفقهاء الذين عرضوا لهذا الموضوع لاتجد واحدا منهم قصد بالمنع أوالتحريم شيئا غير هذا الجدل العقيم الذي يمزق وحدة الجماعة ويصرف العقل عن الفهم ..." ثم يأتي على ذكر الغزالى وابن تيمية. والغزالى، كما نعلم، عدوالفلسفة والفلاسفة، وكتابه "تهافت الفلاسفة " طعنة نجلاء في صدر الفلسفة والفلاسفة، والعقاد يهدف إلى أن الخلاف الذي وقع في صفوف اصحاب الكلام وفيما بين الفرق والنحل الإسلامية إنما مصدره الفلسفة، وإن الفلسفة انتقلت إلى العرب في العهد العباسي عن طريق التراجمة وأكثرهم من غير العرب، وأن الخلافات الكلامية وغيرها إنما هي من مخالفات أولئك التراجمة دون سواهم، وأن الغزالى وابن تيمية وغيرهما على حق في نقض الفلسفة والفلاسفة والمنطق والمنطقيين، وكاد يعلن مع من أعلن أن "من تمنطق شهرا فقد تزندق دهرا"[30].

وإن من يقرأ هذا البحث يقف معجبا أمام هذا العقل المحلل الذي يجول ويصول في علم وسلطان، والذي تتوارد على قلمه الثقافات والحضارات في سيل متدفق من الكلام الرصين والجازم، ويأسف كل الأسف أن ضيق صدر العقاد أحيانا بالحقيقة المجردة التي لا يمكنها أن تخضع لالتزام فكري أو اجتماعي، فهو أحيانا يخضع تحرياته وسلاسل حججه للهدف الذي يرمي إليه، ويجعل الكلام موجها غير مجرد، وقابلا للطعن والتنديد، وهكذا فتفريقه بين المنطق والجدل، وجعل الجدل مرادفا للبرهان الخطابي وللسفسطة بمعناها القديم الحديث، أمر بعيد عن الدقة العملية وعن المفاهيم الفلسفية العميقة، فالمنطق أداة بين يدي الجدل، والجدل قد يكون علميا بحتا كما قد يكون سفسطة، والسفسطة قد تكون عقاما، وقد تكون دهاء وسياسة. أضف إلى ذلك أن الجدل الديني ينشأ مع كل دين، وهو في الإسلام سبق عهد الترجمة والتراجمة، والتراجمة الذين ترجموا لم يترجموا جدلا، ولا كان همهم الجدل، وإنما كان همهم القيام بنقل الحضارة الفكرية القديمة بدقة، وذلك نزولا عند رغبة الخليفة المأمون وغيره، في بيت الحكمة وغير بيت الحكمة، ومحاولة التلاعب بألفاظ الجدل والمنطق والسفسطة وما إلى ذلك من قبل العقاد لا تخفي تفريطه ومغالطاته، وانضواؤه إلى حزب الغزالى وابن تيمية تنكر للعقول الفلسفية الكبيرة التي كانت في أساس الانطلاق العلمي والفكري في حضارة العرب. وهكذا نري هذا الكتاب الكبير شديد الالتزام في مواقفه، شديد الاعتداد برأيه. ولذلك اشتدت الخصومة بينه وبين عدد من كبار المفكرين الذين عاصروه من أمثال طه حسين وغيره.

عبقرية عمر

في هذا الكتاب الذي وضعه العقاد في السودان ومصر، نموذج من نماذج السيرة التي اهتم بها اهتماما خاصا، وكتب فيها عددا غير قليل من الكتب، وأسلوبه فيها غير أسلوب السرد المجرد، وإنما هو ايضا وخصوصا دراسة نفسية يحاول فيها الكاتب أن يسعي وراء نفوس أبطاله ويستخرج منها النزعات والميول متمشية المكان والزمان وأحداثهما، أو مجريات الزمان والأحداث في الخط الذي تنتهجه. قال العقاد في مقدمة الكتاب: "كتابي هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التي تقصد بها الحوادث" والأنباء، ولكنه وصف له ودراسة لأطواره ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة، فلا قيمة للحادث التاريخي جل أو دق إلا من حيث أفاد في هذه الدراسة، ولا يمنعني صغر الحادث أن أقدمه بالاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث، إن كان أوفي تعريفا بعمر وأصدق دلالة عليه. "وهكذا يحاول العقاد أن ينفذ من داخل النفس إلى الخارج، وأن يفسر هذا بذالك، راسما لبطله صورة تفسيرية للتاريخ وللنفس متفاعلين، متعاونين على إيراد الحقائق والأحداث مفسرة تفسيرا "عقاديا" فيه عمق، وفيه ذاتية، وفيه تطبيقات سيكولوجية، وقفرات في المحاولات النفسية تتخطي الحدود التي يرتضيها العقل ويقف عندها غير واثق في تلك التجاوزات التي، إن دلت على عمق وتمعق، لا تخلو من تحذلق وتفريط.

ونرجع إلى "عبقرية عمر" والعقاد يقول فيه: "علم الله لو وجدت شططا في أعماله الكبار لكان أحب شئ إلى أن أحصيه وأطنب فيه، وأنا ضامن بذلك أن أرضي الأثرة وأرضي الحقيقة، ولكني أقولها بعد تمحيص لامزيد عليه في مقدوري: أن هذا الرجل العظيم أصعب من عرفت من عظماء الرجال نقدا ومؤاخذة، ومن فريد مزاياه أن فرط التمحيص وفرط الإعجاب في الحكم له أو عليه يلتقيان"[31].

والعقاد في كتابه شديد الإعجاب بعمر، شديد البعد عن السرد التاريخي العلمي. إنه يشترك في العمل مؤيدا، ومعظما، ومفاخرا، ويشترك بإيمانه وعقيدته مرافقا، ومفسرا، ومعلنا مواقفه. ومن تحليلاته وتفسيراته قوله: "كان (عمر) خشن الملمس صعب الشكيمة، جافيا في القول إذا استغضب واستنير، فليست الخشونة نقيضا للرحمة، وليست النعومة نقيضا للقسوة، وليس الذين لايستشارون ولايستغضبون بأرحم الناس. فقد يكون الرجل ناعما وهو منطو على العنف والبغضاء، ويكون الرجل خشينا وهو أعطف خلق الله على الضعفاء ومن المألوف في الطبائع أن الرجل الذي يقسو وهو معتصم بالواجب قلما ينطبع على القسوة، ولا سيما إذا كان الواجب عنده شيئا عظيما يزيل كل عقبة ويبطل كل حجة، وهكذا ينطلق العقاد في التحليل والتعليل مجاريا التيارات السيكوليوجية التي هبت في زمانه وقبيل زمانه وغزت العالم من أطرافه إلى أطرافه، وهو يغرق في هذه الأخلاقيات ويدلي بالآراء، والآراء السيكولوجية والطبائعية، كما نعلم، لا يمكن أن تكون مطلقة وشمولية، وهي من ثم قابلة للنقاش، فيما أن أخلاق عمر فوق الآراء والنظريات، ويكفي أن

تبسط للناس، وأن يخاطب بها الناس، حتي يجدوا فيه صورة رجل عظيم من معدن العبقرية والامتياز بين الناس على اختلاف العصور، صاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الإنسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت فيه إلى غاية واحدة: وهي إحقاق الحق وإدحاض الباطل"[32].

الله

كتاب أصدره العقاد سنة 1947م وتوخي فيه "الإلهام بأطوار العقيدة الإلهية على وجهتها إلى التوحيد، وأن تكون هذه الأطوار مفهومة العلل والمقدمات"، فلم ينظر فيه إلى العقائد بطريقة غير ملتزمة، ولم يقف أمام هذه الظاهرة الاجتماعية الأساسية موقف العالم الذي يعالج القضية معالجة تقص واستيفاء، بل عالجها معالجة استعراض، متتبعا أهم مراحلها، عارضا أبرز مضامينها: مكتفيا ببعض المصادر التي وقعت له، لا يسعي وراء غيرها في سبيل الإحاطة والمقارنة واستجلاء الحقائق. ومما لا شك فيه أن الرجل أبدي في كتابه عقلا موسوعيا، وامتدادا إلى الآفاق رحبة، وإيمانا صادقا وعميقا، وسعة صدر بعيدة عن التهجم القبيح والتزمت الذميم، وقد اضطره اتساع الموضوع إلى الإيجاز، فكان إيجازه تنقلا سريعا من أطوار العقيدة الإلهية إلى الدول القديمة التي أسهمت في تعميم العقائد المشتركة أعني مصر والهند والصين واليابان وفارس وبابل واليونان، إلى الأديان الكتابية أعني اليهودية والمسيحية والإسلام، إلى الفلسفة وتلك الأديان. إلى كلمة أخيرة ينبض فيها

الوعي والإيمان، وقد أعلن فيها العقاد أن "الأنسان غير المؤمن إنسان غير طبيعي، فيما نحسه من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون الذي يعيش فيه، فهو الشذوذ وليس هو القاعدة في الحياة الإنسانية في الظواهر الطبيعية وليست حجة للمنكر أن يقول أن الإنكار ممكن في العقول، بل حجة للمؤمن أن يقول أن حال المنكر ليست بأحسن الأحوال، وإنه إذا أنكر عن اضطرار تبين له على الفور أنه في حال غير الحال الطبيعي الذي يستقيم عليه وجود الأحياء".

سعد زغلول

أعلن العقاد في مقدمة كتابه "عبقرية عمر" أن كتابيه "ابن الرومي" و "سعد زغلول" من آثر الكتب عنده وأكبرها في الموضوع وفي عدد الصفحات. والكتاب الثاني يقع في أكثر من ست مئة صفحة كبيرة أصدره العقاد سنة 1936م، وتتبع فيه سعد زغلول تتبعادقيقا، في أصله وبيئته ووزارته وفي شتي تحركاته الوطنية، وتقلبات الأحوال معه وعليه، وفي شخصيته وأخلاقه، وكل ما يتصل به من قريب أو من بعيد. والكتاب سجل تاريخي وسياسي واجتماعي لسعد وجيله، وصورة لمصر وما كانت تتمخض به من أحداث جسام، كما هو صورة لسعد في مصر باني وطن، وداعي حرية، وحامل مسؤولية شعب، وصورة لمصر في سعد موطن حضارة وتاريخ، ومحط آمال، وهرم عزة ومجد.

الكتاب هو في الحقيقة "ملحمة سعدية" يقوم فيها التاريخ مقام الأسطورة وينطق فيها البشر منطق المردة والعباقرة، وتتصارع فيها الجبابرة: هؤلاء يدافعون عن حرية وطن وشعب، وأولئك يناورون في سبيل سيطرة واستعمار، هؤلاء يجبهون الظلم والأساطيل بصبر البحار وعناد الأقدار، وأولئك يحاولون تحطيم العزائم، وتذليل الجباه، والحق يقال، ملحمة تاريخية خالية من كل تخيل أو تمحل، ملحمة العزة القومية والإرادة الوطنية.

الكتاب سيرة وتاريخ

سيرة أطلعنا فيها العقاد على بيئة سعد، وشتي جوانب حياته، والمراحل المختلفة التي تدرجت فيها تلك الحياة، وعلى شتي التفاعلات مابين الأحداث والنفوس، وما بين الظواهر والبواطن، وقد اكتملت الصورة السعدية في الكتاب اكتمالا عجيبا، نقرأ فيها الشريط الخارجي لتسلسل الأحداث، ونقرأ الشريط الداخلي النفسي والعاطفي، في مبحريين متناسقين، متلاصقين، ونقرأ الخطوط والظلال، فنقف أمام عظمة سعد زغلول مكبرين، ونقف أمام سمو البطولة وإخلاص الوطنية معظمين، ونقف أخيرا أمام المؤلف وقفة تقدير للعلم، والتتبع، ومناصرة الحق، والعناد في سبيل القضية، والصرامة في الكلمة والسيرة التي أرادها العقاد ناطقة، أحاطها بنظرات تاريخية تشمل العصر، وتكشف عن شتي تياراته، وعمل على ربط حياة سعد بأحداث ذلك التاريخ وبظاهرات تلك البيئة، كما عمل على دعم سرده التاريخي بوثائق الكثيرة والقيمة، وأظهر أنه مؤرخ حقيقي عندما يقصد التاريخ، ومحلل عميق عندما

يريد التحليل، وهو على كل حال رجل الالتزام الذي ناصر سعد زغلول، والتزم الموقف إلى جانبه في الرأي والسعي والنضال في سبيل مصر، وكان كتابه هذا مشاركة لسعد وأنصاره في تقديم النماذج البطولية، وتوجيه الشعوب شطر التحرر والرقي.

والكتاب سرد ممتع أخاذ، وكأنه رواية تطالعها بشغف، وتلاحق أحداثها وأنت مغلوب على أمرك، تنساق مع الحديث الطلي انسياقا، وتندفع وراء العبارات والألفاظ، والمشاهد، والأحداث، متأثرا ومضطرما، يذيبك هنا موقف حزين، ويريبك هناك موقف زلفي أو خيانة، ويصعقك هنا موقف ظلم، ويثيرك هنالك موقف إباء .... وبين هذا كله ينتصب سعد فوق الرؤوس، رئيسا يشير أبدا إلى الأمام في غير تلكؤ ولا ممالاة، وتسير أنت في الكتاب مشاركة أوسع مشاركة، ومستمتعا أطيب استمتاع.

توفي العقاد في الثاني عشر من آذار سنة 1964م بعد أن ترك تراثاً كبيرا[33].

* * *

الهوامش

[1]. د-شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، ص136.

[2]. المصدر المذكور، ص136.

[3]. عامر العقاد، لمحات من حياة العقاد، ص10.

[4]. المصدر المذكور، ص40.

[5]. أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي الحديث، ص224.

[6]. عامر العقاد، لمحات من حياة العقاد، ص41.

[7]. د-شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر،ص138.

[8]. المصدر المذكور، ص136.

[9]. عامر العقاد، لمحات من حياة العقاد، ص47.

[10]. د- شوقي ضيف، مع العقاد، ص20.

[11]. أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي الحديث، ص227.

[12]. أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي الحديث، ص227.

[13]- عامر العقاد، لمحات من حياة العقاد، ص76.

[14]. أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي الحديث، ص228-229. و د-شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر،ص136-139.

[15]. د- حنا فاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي(الحديث) ص300.

[16]. عباس محمود العقاد: الديوان 4/46.

[17]. عامر العقاد، لمحات من حياة العقاد، ص89.

[18]. د- محمد مندور: النقد والنقاد المعاصرون، ص85.

[19]. المصدر المذكور: ص98-102.

[20]. د- محمد مندور: النقد والنقاد المغاصرون، ص87-89.

[21]. المصدر السابق: ص90.

[22]. المصدر السابق: ص97.

[23]– د– محمد مندور: النقد والنقاد المعاصرون، ص120.

[24]. د– محمد مندور: النقد والنقاد المعاصرون، ص122.

[25]. أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي الحديث، ص229.

[26]. د– محمد مندور: النقد والنقاد المعاصرون، ص127–128.

[27]. أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي الحديث، ص229.

[28]. حنا الفاخوري: الجامع في الأدب العربي (الحديث) ص293.

[29]. حنا الفاخوري: الجامع في الأدب العربي (الحديث) ص293.

[30]. المصدر المذكور، ص296.

[31]. المصدر المذكور، ص297.

[32]. المصدر المذكور، ص298.

[33]. د– شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، ص136.

الباب الثالث

نبذة عن حياة العقاد في ضوء الكتاب

"أنا"

الفصل الأول

بيان موجز عن كتاب "أنا"

هذا الكتاب "أنا" من جملة الكتب التى كتبها الأستاذ الكبير والناقد العظيم والأديب والشاعر العملاق والمؤرخ الشهير عباس محمود العقاد بيانا عن حياته الشخصية والنفسية، وحالته الفكرية العلمية وتحدث عن فلسفته بين الشباب والكهولة وعن تجاربه وخبرته الأدبية والثقافية.

وكان قد كتب العقاد عدة مقالات قبل ذلك في هذا المجال مثلا "وحي الأربعين" و " بعد الأربعين" و"وحي الخمسين" وكذلك روايته الشهيرة "سارة" تصور إلى حد ما فلسفته في الحب وحياته الغرامية، ولكنه كان يريد في هذه المرة أن يكتب كتابا جامعا لأحواله الشخصية والنفسية والفكرية والأدبية وعلاقته مع الأساتذة والأصدقاء والأعداء في ميدان العلم والسياسة والصحافة كما قال هو بنفسه حينما طلب منه صديقه الحميم طاهر الطناحى محرر مجلة "الهلال" في سنة 1946م وكان الأستاذ في نحو السابعة والخمسين من عمره أن يكتب كتابا عن حياته في هذا الحد من العمر كما فعل هو قبل ذلك فقال"سأكتب هذا الكتاب وسيكون عنوانه "عنى" وسيتناول حياتى من جانبين : الأول حياتي الشخصية بما فيها من صفاتى و خصائصى ونشأتى وتربيتى البيئية والفكرية وآمالي وأهدافي، وما تأثرت به من بيئة وأساتذة وأصدقاء، وماطبع أو انطبع في نفسى من إيمان وعقيدة ومبادئ أو بعبارة أخرى " عباس العقاد الإنسان"

الذى أعرفه أنا وحدى، لا "عباس العقاد " كما يعرفه الناس ولا "عباس العقاد" كما خلقه الله.

"والجانب الثانى (من كتابى يشمل) حياتى الأدبية والسياسية والاجتماعية والمتصلة بمن حولى من الناس، أو بالأحداث التى مرت بى وعشت فيها أو عشت معها، وخضت بسببها عدة معارك قلمية، وكانت صناعة القلم أبرز ما فيها أو بعبارة أخرى " حياة قلمى" الذى عاش معى وعشت معه منذ بدأت أكتب في الصحف السياسية والأدبية وأنا في السادسة عشرة حتى الآن[1].

ولكن مثل هذا الكتاب الذى كان يريد الأستاذ العقاد أن يكتبه يحتاج منه إلى التفرغ مدة طويلة ، وبخاصة الجانب الثانى لأنه يحتاج إلى دراسة تاريخية ومراجعة للأحداث، وتحقيق دقيق للأسباب و المسببات، وجمع للوثائق السياسية والأدبية، والحلقة السادسة من عمره تعوقه أن يعمل بكل جد و نشاط، فاستقر الرأى من خلال حوار له مع الطناحى على أن يبدأ بالجانب الأول لأن المقالتين "وحى الأربعين" و "وحى الخمسين" كانتا موجودتين من قبل، فأضاف إليها بعض المقالات الأخرى مثل "إيمانى" و "أبى" وغيرها التى تم نشرها في مجلة "الهلال" في الثلاثين فصلا، و كذلك جمع طاهر الطناحى بعض المقالات عن حياته التى كتبها في المجلات الأخرى مثل "العصور" و"الاثنين" و "كل شئ" و "القافلة" طلب الإجازة منه أن يتألف منها كتاب مع عنوان مناسب لائق فأجازه و قال " لابأس و سنجعل عنوان الجانب الثانى بعد تاليفه "حياة قلم"[2].

وكان طاهر الطناحى مشغولا في جمع هذه المقالات ومايكاد ينتهى من جمعها حتى مرض الأستاذ وعاجلته المنية فجمع طاهر الطناحى هذه المقالات

في شكل كتاب واختار له عنوان "أنا" لأن الكتاب يتناول الجانب الشخصى والنفسى من حياته وقال "لو كان العقاد حيا لما رفض هذا العنوان"[3]. ونشره بعد عدة شهور من وفاة الأستاذ العقاد – رحمة الله عليه رحمة واسعة–.

الكتاب يحكى

إن الكتاب "أنا" يحكى أن عباس محمود العقاد ولد في أسوان يوم 28 من شهر يو نيو عام 1889م في بيت أب كريم عفى عربي وأم كردية، فكان أبوه يؤدى صلاة الصبح ويجلس على سجادة الصلاة من مطلع الفجر ما قبل الإفطار ليتلو سورا خاصة من القران الكريم و يعقبها بتلاوة الدعوات، وكان يحتقر المال أن يطلبه بما يسوء في الضمير أو يسئ إلى إنسان، ومن تقديراته من احتقار المال الذى يكسب عن طريق الإساءة إلى الناس أنه مرة زجر أخيه الكبير زجرا شديدا لأنه كان ينوى أن يكسب المال من طريق غير جائز، فهو كان يحب الدين والكتب الدينية ومحافل العلماء ويعطف على ذوى الأقرباء ويزوهم في المواسم والأعياد حتى أن جاوز الخمسين، وكذلك كانت أمه من أسرة كريمة تحب الدين وتصلى الصلاة من عنفوان شبابها خلاف النساء المصريات اللواتى لا يصلين إلا بعد الأربعين، فهى لاتتطير بالشهرة ولا تغتبط بها لحظة وتصبر على الصمت والاعتكاف، كما يقول هو "و لم أر في حياتى إمرأة أصبر على الصمت والاعتكاف من والدتى فربما مضت ساعة وهى تستمر من جاراتها وصديقاتها وتجيبهن بالتأمين أو بالتعقيب اليسير وربما مضت أيام وهى عاكفة على بيتها أو حجرتها لاتضيق صدرا بالعجلة وإن طالت"[4].

فورث عباس محمود العقاد هذه الخصائل الحميدة والأوصاف الدينية من أبيه و أمه، ونشأ وترعرع في مدينة أسوان فهو يغتبط بتاريخها الخالد الذى يتمثل في الهياكل والتماثيل، وفد إليها كثير من أهل العلم والمعرفة، وخرج منها خلائق كثيرة من أهل الرواية والأدب، فهى أرض جزر وجنادل و تيارات وصخور في الماء والصحراء، وتجمع من الألوان ما تجمعه المعادن الجواهر، وتحكى الذهب والفضة والشبه كما تحكى الزمرد والمرجان والياقوت، وكذلك الكتاب يحكى عن أيام العقاد في الطفولة وحوادثها ونزعاته وعاداته والمناظر والأشياء التى كانت تجذب نظره واهتمامه فهو يقول " أجمل المناظر التى تحتفظ بها الذاكرة من ذخائر العاشرة وما دونها منظر فتاة أوربية هيفاء لفت نظرى أنها تسير في وسط المدينة على غير عادات السائحين والسائحات وتدير على خصرها حزاما أو "مشدا" لا يزيد قدره على بضعة قراريط و تخطر في الطريق الوعر كأنها تلمس أغصان الشجرة بقدمي قطاة"[5].

وكذلك أنه كان يلعب في المزرعات ويفرح برؤية المناظر الطبيعية، ويجلس في محافل العلماء والأدباء التى تعرف فيها بالقاضى أحمد الجداوى الذى كان من الفقهاء الذين عاصروا جمال الدين الأفغانى وأخذوا عنه دروس الحكمة والغيرة القومية، فوسع به علمه ومعرفته وزادت حماسته على القرأة والمطالعة فكان تلميذا ناجحا في المدرسة، ولكنه تركها وأخذ يطالع الكتب بنفسه، فكان يصرف كل نقوده التى يحصلها من أبيه وأمه في شراء الكتب وبهذه الطريقة أنه قرأ العقد الفريد ومقامات الحريرى وبعض الدواوين الأخرى.

إن الأستاذ يحكي عن أساتذته و يغتبط عليهم و يقول "ومما أحمد الله عليه أن أساتذتي جميعا قد اخترتهم بنفسي،و لم يفرضهم على أحد يملك سلطة التعين والفصل دون غيره لأنهم كانوا جميعا مؤلفين مشهودا لهم برسوخ القدم في صناعة التاليف،أقرأ منهم ما أشاء و أعرض عمن أشاء واطلبهم حين أريد و حيث أريد"[6]. ثم يقول هو "كان أساتذتى جميعا ممن اخترتهم بنفسي، نعم! ولكننى أحب أن استثنى أستاذا واحدا كان حضوري عليه من اختيار أبى لا من اختيارى و ذلك هو الشيخ أحمد الجداوى رحمه الله"[7].

ثم بين الأستاذ الأسباب التى جعلته كاتبا وفلسفته في كتابة الكتب والمقالات، والكتب المفضلة عنده، وأسباب هجره وظائف الحكومة، و جاء بمقالات مستقلة لكل من أعدائه وأصدقائه وإيمانه وفلسفته في الحب والحياة وكذلك صور حالته في البيت والمكتبة وبين الكتب فكل مقالة من هذه المقالات تحتاج إلى دراسة مستقلة فلذلك نضطر إلى أن نأتى بعناوين مستقلة لهذه المقالات حسب الموضوع.

* * *

الفصل الثانى

مع العقاد في كتابه

فلسفة العقاد في الصحافة

إن العقاد كان مولعا بالصحافة والكتابة منذ أيام طفولته كما يقول العقاد "و اتجاهى إلى الصحافة أو إلى الكتابة على الأصح قد تلاقت فيه كلمات التشجيع مؤاتاة الظروف والرغبة الكامنة في الطويلة من أيام الطفولة ولا أقول من أيام الصبا أو الشباب لأننى عرفت أننى أحب الكتابة أرغب فيها قبل العاشرة ولم انقطع عن هذه الشعور بعد ذلك إلى أن عملت بها واتخذتها عملا دائما مدى الحياة"[8].

إن العقاد يؤمن بأن الناشئ لابد له أن يتلقى كلمات التشجيع ممن يثق به ويعتز برأيه وكذلك لابد من أن تكون الظروف موافقة له وكذلك يؤمن العقاد بالرغبة في الوجهة التى يتجه إليها الناشئ والعمل الذى يختاره ويحس من نفسه القدرة عليه والإستعداد له مع الاجتهاد والتذرع بالوسيلة الناجعة وتتلاقى معا ولا متفرقة يتيسر بعضها و يتعذر سائرها في مستهل الطريق فكلمات التشجيع إذا امتنعت الظروف المؤاتية قلما تفيد وكلمات التشجيع مع مؤاتاة الظروف تضيع كلها عبثا إذا امتنعت الرغبة في نفس الناشى.

وهذه الأشياء كلها كانت متوفرة للعقاد. إنه تلقى كلمات التشجيع من الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده حينما قال له في وصفه بعدما اطلع على كراسته لموضوعات الإنشاء "ما أجدر هذا أن يكون كاتبا بعد". وإنه كان على

رغبة اكيدة للكتابة والصحافة، والظروف كانت له مواتية فشرع إصدار مقالاته في مختلف الصحف والمجلات منها الدستور واللواء والمؤيد والظاهر. وتولى منصب رئيس التحرير لعدة مجلات منها الدستور. وإنه تلقى بعبد الله نديم وخلال قرأته لكتاباته حاول تقليده فأصدر مجلة حائطية أسماها "التلميذ" على غرار صحيفة "الأستاذ" نهج في تبويبها منهج النديم وافتتحها بمقال عنوانه "لوكنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" ووجهها إلى الإحتلال البغيض، وكان يقوم بتوزيع أعداد قليلة منها على أخواله وإخوته وأصدقائه وأستاذه الأول الشيخ الجداوى الذى يتسلمها منه هاشا مشجعا كعادته محفزا له على الإستمرار.

إنه كان يؤمن بالحرية الفردية في جميع أعماله، عاش لها وسلك في سبيلها و هذه الصفة كانت بارزة في مقالاته الأدبية والعلمية، أنه هجر وظائف الحكومة لأجل ذلك وكتب مقالا في الجريدة عن الوظيفة بعنوان "الاستخدام رق القرن العشرين" فجاءت مقالته بمثابة الرثاء للوظيفة وأثارت ضجة كبيرة في المجتمع.

إنه كان يؤمن بأن تكون المقالات الصحفية للمجلات الأدبية باقتراح من الزملاء المشرفين على تحريرها لأن محررالمجلة أولى باقتراح موضوعاتها وأقدر على اختيارها و اجتناب التكرار فيها، و أن تكون الصحف اليومية مليئة بالأحداث الراهنة التى تجرى في البلد وأن يكون الأهم أسبق من المهم، وكذلك المقالات الأدبية والثقافية والدينية لاتقل أهمية من المقالات السياسية وكذلك النقد على كتاب أو التعليق عليه، قصيدة الشاعر أو خبر عن أديب أو مناقشة علمية تزيد أهمية الصحف، وكذلك لابد من إعادة النظر على المقالة لتكون في

صورته الأخيرة الخالية من الأغلاط والنقائص، وأن تكون المقالة مزينة من أقوى الحجج بلغة سليمة رائعة في موضوع مناسب لتدفع ركب الحضارة والإنسانية إلى الإمام، أما الاستعانة من المنبهات التى يألفها بعض الكتاب أثناء العمل كالتدخين وشرب القهوة وما إليها لايجوز عند العقاد.

كتب العقاد في موضوعات مختلفة منها الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة، وأخذ على نفسه عهدا بنصرة الثورة العرابية وزعيمها في جميع مواقفه السياسية وغير السياسية، فأخذ ينادى على صفحات صحف الوفد بمبادئ الحرية الإنسانية و يهاجم طغيان المستبدين عليها، أنه وقف ضد كل ظلم وخيانة وغش ونقد نقدالاذعا الإنجليز الغاشم والزعماء الوطنيين الذين يشيعون له وشن الحرب ضد الديكتاتوريين و الإقطاعين الاستقراطيين وأصدر كتابا مستقلا عن الحكم المطلق في القرن العشرين، حمل فيه على الحكم الاستبدادي حملة شعواء، وأظهر فساده السياسي والعلمي والاجتماعي، وأنه لم يدع حاكما طاغيا إلا أصلاه بنيران حملاته الصحفية، وعانى ماعانى من شدائد، واحتمل متاعب السجن والاضطهاد لتسعة أشهر لنقده على الذات الملكية، وأنه تمسك بالإيمان وبالحرية إلى أخر نفثة من الحياة، ودافع عنها وأبى أن يهون عرض إنسان كائنا من كان يشترى بالمال أولغرض من أغراض الحياة، لذلك نراه يتساءل بينه و بين نفسه ويوضح ذلك في كتاباته حيث يقول "ماذا يقال في عرض الإنسانية الذى يشترى في الحياة وبعد الممات، يزيف فيه الواقع للعيان ثم يلازمه الزيف بعد ذلك مدى الأجيال على صفحات التاريخ"[9].

فلذلك وصفه كامل سليم حينما سأله سعد زغلول عن العقاد الكاتب الكبير فقال له " أديب فحل، وله قلم جبار، ورجولة كاملة، ووطنية صافية، واطلاع واسع ما قرأت له بحثا أو رسالة في جريدة أو مجلة إلا أعجبت به غاية الإعجاب، وهو لايعالج موضوعا إلا أحاط به جملة وتفصيلا، إحاطة لاتترك بعدها زيادة لمستزيد، وله أسلوب أدبي فريد"[10].

فلسفة العقاد في الكتابة

إن الأستاذ عباس محمود العقاد كتب أكثر من سبعين كتابا فأحسن كتابتها وأحاط الموضوع من كل جوانب إحاطة جيدة، أنه ما كان يقرأ كتبا كثيرة ليكتب في موضوعاتها على الإطلاق وإنه ما كان يكتب ليكتب فقط بل أنه كان يختار تلك الموضوعات التى كانت تحتاج إلى إنصاف وحق لازم كما يقول هو" أهم موضوعات التأليف عندى هوموضوع التراجم والسير التاريخية أو الأدبية فالقاعدة في اختيار ترجمة ما للكتابة فيها أن تكون كتابتها لازمة لإبراز حق ضائع أو حقيقة مجهولة، وتستوى في ذلك سير العظماء النوابغ من كل طراز وفي كل طبقة من طبقات العظمة والنبوغ"[11].

فلذلك أنه كتب كتابه "إبن الرومى" لأنه كما يظن هو مجهول القدر مبخوس الحق، وهو يرى أن إبن الرومي هو أعظم شعراء العالم بلا استثناء في ملكة الوصف التصويرى والعاطفة الممثلة في قالب الحس والخيال وملتصقا بهذه العقيدة إنه كتب عبقرياته إلا كتابه "عبقرية محمد" لأن عظمة النبي صلي الله عليه وسلم لاتحتاج الي أنصاف أحد أو دفاع في ناقد ناقم يفترى عليه، لأنها عظمة القداسة التي تعلو على انصاف المصنفين و افتراء المفترين، و لكنه كتب

هذا الكتاب للقارئ،الإنسان الذي تضطره مقاييس اللإنسانية العليا إلى تعظيم نبى الإسلام و لم يكن على دين المسلمين.

و كذلك إنه اختار للترجمة بعض العلماء الذين بلغوا بالحيلة والمكر ما لم يبلغوه بالقدرة الخالصة ليعرف الناس الفارق بين حق الفرصة في زمن من الأزمان و حق القدرة في كل زمان، كتبه عن "سن ياتسين وشكسبير وبرناردشو وفرنكلين و عقائد المفكرين و غيرها كانت تلبية للمقترحات التى وافقت رغبته و لكنها كلها من التراجم و غير التراجم و من الموضوعات التي اختارها أو وافق على اختيارها لا تخرج عن مقصد واحد وهو إحياء الثقة بالروح الإلهي الخالي من لوثة المادة و مهانة الإنكار العقيم أو مهانة كل اعتقاد و خيم يغلب فيه عامل السلب و النفي على عامل الثبوت وا لإيجاب.

إنه كان يؤجل أحب الموضوعات عنده ليجد لها وقتا مناسبا لائقا لأنه توفية الكلام فيها تستغرق الوقت الطويل وتستلزم الإحاطة بجميع الجوانب ولايتم إجمال القول فيها –فضلا عن التفصيل– فيما دون المئات من الصفحات، فلذلك أنه أجل كتابته عن الغزالى و محمد عبده، لأن أولها عنده كان من أحب المفكرين الإسلاميين و أقدرهم تفكيراعلى الإطلاق وثانيهما كان خليفته.

هكذا كتب العقاد كتابة جيدة عن وجود الخير الأكبر وعن وجود الشرالأكبر كتب عن الكون والإنسان والأنبياء والعظماء والصلحاء وقادة الفكربين وأمم الحضارة قديمها و حديثها، كتب عن بعض ولم يستطيع أن يكتب عن بعض لقلة وقت، وكان أسلوبه فيها أسلوبا جيدا رائعا، فهو كان يرى أن يكون العمل حسب الأصول المضبوطة والمناهج الفنية إلا التقليد ماكان جائزا

عنده. إنه كان يرى في منهج القصة بأن إبلاغ مؤثراتها النفسية إلى وجدان القارى هو كل ما يطلب من كاتبها بغير قيد مرسوم ولا اتباع المدرسة خاصة أو فنان معلوم كما عالج هو قصته الوحيدة "سارة" بهذا الطرز فهو يقول " لست ادعو كل قلم إلى اتباع هذا المنهج في وصف هذه العلاقة (أى علاقة الفتى بالفتاة) و لكننى أدعو من شاء أن يقترح لها منهجا أخر يوافق النقاد والشعراء على أنه أصلح من منهجها لأبلاغ مؤثراتها النفسية إلى وجدانهم ولا أحسبهم موافقين"[12].

مذهب العقاد في القرأة والمطالعة

إن الأستاذ العقاد كان مولعا بالقراءة والمطالعة منذ طفولته، إنه لايرى كتابا مفيدا إلا إشتراه و قرأه من أوله إلى أخره، إنه يصرف كل نقوده التى يحصلها من أبيه وأمه في شراء الكتب والمجلات، كذلك أنه فرغ من قرأة تلك الكتب كلها التى كانت عند أبيه وأخواله. إنه ما كان يقرأها أن يكتب في موضوعاتها أو ليجيب عن سؤال يطرحه عليه السائل بل كان يقرأها ليوسع بها معرفته و علمه وثقافته وخبرته و تجاربه العلمية وليصبح شعوره وخياله وفكره عميقا في الموضوع، فانه كان يعتقد بأن الفكرة إذا تلتقى بفكرة أخرى، وأن الشعور إذا يلتقى بشعور أخر وأن الخيال إذا يلتقى بخيال أخر فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين، أو أن الشعور يصبح شعورين، أو أن الخيال يصبح خياليين، كلا! و إنما تصبح الفكرة بهذا التلاقى مئات من الفكر في القوة والعمق والامتداد، كما ان المرء حينما يجلس بين مرأتين فلا يرى إنسانا واحدا أو إنسانين اثنين ولكنه يرى عشرات متلاحقين في نظره إلى غاية ما يبلغه

النظر في كل اتجاه، أن الفكرة الواحدة جدول منفصل وأما الأفكار المتلاقية فهى المحيط الذى تنجمع فيه الجداول جميعا فهو يقول "إنما أهوى القرأة لأن عندى حياة واحدة في هذه الدنيا، و حياة واحدة لاتكفينى ولاتحرك كل ما في ضميرى من بواعث الحركة والقرأة دون غيرها هى التى تعطينى أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق وإن كانا لاتطيلها بمقادير الحساب"[13].

إن الكتب عند العقاد بمثابة الطعام الذى يكسب منه البدن القوة والطاقة كذلك الكتب تكسب منها الفكرة القوة التعمق والكمال، بل هى النوافذ التى تطل على حقائق الحياة ويتوصل منها الإنسان إلى سر الكون، ولايمكن لنا أن نتصور الحياة بغير التجارب، وأن التجارب تأتى من الكتب لأنها تجمع بين طياتها تجارب آلاف من السنين في مختلف الأمم والعصور.

أما الكتب المفضلة عند العقاد هى كتب فلسفة الدين، وكتب التاريخ الطبيعى وتراجم العظماء وكتب الشعراء وكذلك كل كتاب يزيد المعرفة والقوة على الإدراك والعمل و تذوق الحياة فهو جدير بالعناية والتقدير وعلى هذا المقياس يمكن الفرق بين ما يصلح للثقافة والتهذيب وما لايصلح.

أسباب النجاح عند العقاد

يقول العقاد بأن الإنسان الذى يريد النجاح في حياته لابد له أن يعرف نفسه قبل كل شئ، لأن عرفان النفس هو عرفان الحياة و عرفان الحياة هو سر النجاح والفوز في الحياة، ثم لابد له أن يثق بها و يعتمد عليها اعتمادا كاملا

ولايضجر من سخط الساخطين واقتراء المفترين لأن الناس يغيظهم المزايا التى منفرد بها ولا تغيظهم النقائص التى تعيبه وأنهم يكرهون منك ما يصغرهم لاما يصغرك وقد يرضيهم النقص الذى فيك لأنه يكبرهم في رأى أنفسهم ولكنهم يسخطون على مزاياك، فلذلك لافائدة من اتقاء السخط ولامن اجتلاب الرضى.

ثم لابد له أن يختار للعمل طريقا صحيحا لائقا يناسب نزعاته وعاداته وظروفه الحياتية وطباعه الفطرية، وأن تكون الرغبة الصادقة الأكيدة في النجاح ويعمل بعمله لذاته لا للنتيجة التى يترقبها من ورائه، سواء كانت ربحا من المادة أو شهرة على الألسنة أو جاهة في المجتمع أوالتاريخ، أى الأهتداء إلى استعداد الفطرة ثم صدق الرغبة في تحقيق ذلك الإستعداد وصرف الجهد إلى العمل دون العقبات هذه هى أسباب النجاح والفوز الفلاح في الحياة، ولكن يجدر بالذكر هنا أن الإنسان ليس من سعته أن يحقق كل ما يريد وكل ما يراد منه ولو كان أنجح الناجحين.

مقياس الصداقة والعداوة عند العقاد

لقد كان العقاد صاحب عقل جبار وقلم خطير جاهر بالصدق والعدل ومقت الكذب والظلم، ومن هذا فإنه قد وقف نفسه لنصرتهما حتى لتحس بأن نصرة هاتين الصفتين هى رسالته في الحياة، وذلك لأنه دافع عنهما دفاع المستميت وجاهد في سبيلهما جهاد الأبطال الأفذاذ ولم يبال في سبيل ذلك سخط الساخطين وافتراء المفترين، وهذه العادة الجريئة والصفة المحمودة اكتسبتها كثيرا من الأصدقاء من جانب والأعداء من جانب آخر في ميدان السياسة والعلم والثقافة والأدب، فهو يحمد لهذا حمدا بالغا مرة بعد مرة لأن هذه الصداقة

والعداوة هى نعمة من نعم الله وبها تتزين الشخصية ويعرف الإنسان محامد وإزالة النقائص والمعائب التى هى فيه فهويقول "وأحمد الله مرة بعد مرة لأننى لا أصادق أحدا ولا أعاديه في مأرب من مأرب النفس ولافي صغيرة من صغائر الضعف الذى يبتلى به كل إنسان فما عرفت صديقا فعرفت لصداقتى له سببا غير فكرة نشترك فيها أو مطلب من مطالب الأدب نتفق عليه أو غاية من الغايات العامة نسلك السبيل إليها، أو طرفة من طرف الراحة الروحية تعم كل من يستريح إليها، ولا تخصنى أو تخصه بداع من دواعى الأثرة والمحاباة وكذلك أعدائى الكثير منهم والقليل، أعاديهم وأصح من ذلك أنهم يعادونى، لأننا نتعادى على خطة أو برنامج أو مصلحة من مصالح الناس، ومن أولئك الناس"[14].

إن الخصومة بينه وبين كل من الرافعى وشوقى و طه حسين وغيرهم من الأدباء والشعراء كانت من هذا القبيل لأنه حارب الجمود والرجعية والإنكار والجهود في مجال الأدب، كذلك أعداء الأدب المسمى بالقديم وحارب أصدقاء الأدب المسمى بالجديد بكل جد وإخلاص.

وكذلك أنه حارب الطغيان والفوضى، وحارب رؤوس الأموال والأحزاب والملوك ومذاهب الهدم والبضاء، وحارب هتلر ونابليون والمستعمرين في صفوف الديموقراطيين والصهيونيين والنازيين، واكسب في هذه الحرب الأعداء من جميع هولاء، ولكنه يحمد الله لهذه العداوة بأنه خصه واختاره لهذه الحرب فهو يقول " لا يهمنى كم من الناس أرضيت ولكن يهمنى أى نوع من الناس اقنعت، وكذلك يقول عرفت أن الذين أسخطهم لايرضيهم

عني شئ، وأن الذين أرضيهم لايسخطهم على شئ فلا فائدة اذن من اتقاء السخط ولا من اجتلاب الرضى، لأن الذين يسخطون على يرجعون إلى خلائقهم التى لاتتغير والذين يرضون عنى يعرفوننى من عملى الذى يرتضونه ولايريدون منى شيئا سواه"[15].

فلسفة الإيمان عند العقاد

إن الأستاذ عباس محمود العقاد يؤمن بالله وراثة وشعورا وبعد تفكير طويل، أما الوراثة فانه قد نشأ بين أبوين شديدين في الدين لايتركان فريضة من الفرائض اليومية، أما الإيمان بالشعور فذلك حينما امتزج مزاجه الدينى بمزاجه الأدبي والفنى، وأما إيمانه بالله بعد التفكير لأنه فكر في العقل والمادة والكون والإنسان والطبيعة تفكيرا طويلا ووصل بواسطته إلى نتيجة ناضجة.

أما في مجال الأخلاق فلا موجب عنده لعمل الخير غير طلب الكمال وفهم الكمال كما أن الإنسان يحب الطعام الجيد أوالطعام المفيد لأنه يعلم ويفهم بأن الطعام الجيد فيه فائدة لجسمه وعقله، وكذلك الطفل يؤجر على تجرع الدواء ويساق إليه بالحيلة والإغرار لأنه لايعرف ما هو الداء، ولا ما هو الدواء، ولكنه حين يكبر ويعرف هذا وذاك فإذا هو يبذل الأجر لمن يعطيه الدواء ويسعى إليه عند الأطباء في أبعد الأرجاء، وما تغير طعم الدواء ولاتغير عمله ولاتغيرت الحاجة إليه ولكن تغير شعور الطفل بالصحة الجسدية وتغير شعور بالواجب عليه، وهكذا طعام العقل والروح حيثما عرفت الروح ما يصلح لها وما يليق بها من طعام أنها لاتستريح بغيره ولاتتوانى عن طلبه ولاتنتظر المثوبة أو الشكر.

أما العقاد في المعاملات فهو يرى في هذا المجال بأن الطبيعة الموجودة في الطبيعة الإنسانية ولكنك لاتجدها في كل إنسان ولاتجدها في لبابه قيمة إنسانية وليس بقيمة لفظية"[16].

فلسفة العقاد في الحياة

إن العقاد كان رجلا متفائلا، كان يتفائل في كل شئ من الحياة، فقد كان يتحدى التشاؤم ولايؤمن به حتى أنه كان يتحدى رقم 13 الذى يتشاؤم به الكثيرون، أنه كان يريد الحياة أن تبقى متهللة مبتهجة في كل شأن من شؤنها، ويحبها حبا شديدا على الرغم من متاعبها و أذاها وعلى الرغم من أنه كان في السبعين من عمره لأنه كان يحب المعرفة ويعزم بها ويحب أن يصل إليها وتصل إليه كما قال هو " والحياة بمعناها ولفظها حياة سواء رضينا أم لم نرض، وهى خير من الموت وقد نظمت أبياتا في المعنى فقلت:

قالوا الحيـــاة "قشور" قلنا فأين الصمـــيم

قالوا "أشـــقاء" فقلنا نعـــم فأين النعـــيم

إن الحيـــاة حيـــاة ففارقوا أم أقيمـــوا"[17].

يقول العقاد إن المرء يستمد الفلسفة في الحياة من الطبع الموروث ثم من تجربة الحوادث والناس، ثم من الدرس والإطلاع، أما أنا فاستمدتها من الطبع الموروث أكثر من التجربة أو الدرس في حياتى الشخصية أما في حياتى مع الناس فأثر التجربة والدرس فيها أغلب من الطبيعة الموروثة.

إن العقاد ما كان يكترث بالمال ولابصاحبه بل كان يعجب بالمتوسعين في الفتح والعلم والمعرفة، وكلامه عن هتلر ونابليون والإسكندر هو أثر من آثار هذه العقيدة أو هذا الشعور، فهو كان لاينتظر من الناس كثيرا ولايطمع منهم في كثير ويعمل لقيمة العمل وبواعثه لالغاياته، فإذا كان يرى أن العمل له قيمة فيثق به ويعمل ولايبال لقول منكر، فهو يعتقد بأن الحياة جديرة بأن تحياها بشرط أن تكون حياة كريمة شريفة مفيدة مستقلة لاحياة مهينة مستعبدة لأهواء الآخرين، وليس من الضرورى أن تبقى الحياة في حالة واحدة في كل مرحلة من مراحلها وتخلو من أسباب الشكاية بسبب معقول أو غير معقول لأنها ليست ساعة واحدة، وليست يوما واحدا أو سنة أو بضع سنوات، ولكن لابد أن يكون الفرق بين شكوى الطفل لأمه وشكوى الرجل لنفسه، على المرء أن يعالج حياته ويصلحها ويجعلها أهلا بأن يحياها.

هذا الاعتقاد للعقاد من الحياة ما تغير حتى في أواخر أيامه فهو يقول إن الحياة حياة سواء كان المرء في الثلاثين أو في الأربعين أو الخمسين أو الستين إلا أن تحدث بعض الفروق، والفارق الأكبر بين الشباب والشيخوخة بأن الشباب حالة نتمناها على علاتها وأن الشيخوخة حالة نرضاها أو لا نرضاها على حسب الظروف، أما حبه للجمال وشعوره لامراء فيه ولكنه حب غير حب الجمال في ريعان الشباب كما هو يقول " وارتفع عندى مقياس الجمال، فما كان يعجبنى قبل عشر سنين لايعجبنى الآن، فلست اشتهى منه أكثرمما أطيق، كنت أحب الحياة كعشيقة تخدعنى بزينتها الكاذبة زينتها الصادقة، فأصبحت أحبها

كزوجة أعرف عيوبها وتعرف عيوبى، لا أجهل ما تبديه من زينة وما تخفيه من قبح ودمامة وأنه حب مبنى على تعرف وفهم"[18].

أما الموت فكان العقاد يكرهه ولكنه لايخشاه ولم يكن يطمع أن تدوم حياته إلى سن المائة، فهو كان يتمنى أن تنتهى حياته عندما تنتهى قدرته على الكتابة والقرأة ولو كان ذلك غدا، إلا أنه كان يريد أن يكتب كتابا يسميه " تجارب مائة عام " أو " قرن يتكلم " إن توافرت له الصحة ولم تضمحل القوة وبلغ إلى سن المائة.

الحب والعقاد

إن العقاد أحب في حياته مرتين صدم في الأولى ففارقها كارها لها لخداعها و خيانتها وفارقته الثانية لأنانيتها وكرامتها كما قال هو " لقد أحببت في حياتى امرأتين " سارة " و " مي " كانت الأولى مثالا للأنوثة الدافقة ناعمة رقيقة لايشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها و أنوثتها ولكنها مثقفة أيضا والثانية هى " مي " كانت مثقفة و قوية الحجة تناقش وتهتم بتحرير المرأة واعطائها حقوقها السياسية كما كان فيها بعض صفات الرجال من حيث أنها جليسة علم وفن وأدب وزميلة في حياة الفكر، أما المرة الأولى فأنه أحب سارة التى كانت فتاة جميلة لونها كلون العسل المشفى يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء في مسحة واحدة وقد دام الحب بينهما عدة سنوات ثم صدم في حبه وكانت الصدمة منها، وكان الفراق بينهما.

والمرة الثانية هو أحب " الآنسة مى " فقيدة الأدب العربي قد أحبها العقاد حبا روحيا وكان يزورها ويجالسها ويتناولان من الحب ما يتناوله العاشقان العذريان، وكان يكتب إليها فيفيض ويسترسل ويذكر الوجد والشوق والأمل، وكانت مي أيضا تحبه حبا شديدا ولم تكن تعلم بحبه ل "سارة " وإنما كانت تزعم أنه معزول عن عالم النساء غير أنها لم تحفل باتصاله بالنساء، فلما شعرت بأنه يحب فتاة أخرى فكان الفراق بينهما.

هكذا يمكن أن يقال بأن العقاد خاب في حبه، خاب في حب "سا رة" و خاب في حب "مى"إنه فارق الأولى كارها لها لخداعها و خيانتها و فارقته الثانية لأنانيتها و كرامتها عاتبة غيرمنصفة لأنه لم يختلس منها شئيا هو من حقها عليه ،ولكنه مع ذلك يمدح الحب و يقدسه و يحترمه و يعده أغلى الأشياء في حياة الإنسان.

فلسفة الحب عند العقاد

كما قلت سابقا بأن العقاد خاب في حبه إلا أنه كان يمدح الحب و يقدسه و يتفاءل به و يهز المرأ على أن يتمتع بحياته كل حين وآن، أنه كان يعرف الحب بـــأنه اندفاع روح الى روح و اندفاع جسد إلى جسد و نداء قلب إلى قلب، فليس هو بالغزيرة الجنسية ولا الشهوة ولا الصداقة بل هو الأقوى منها والأعم و الأصدق، فيه شئ من العادة و العداوة و الأنانية و الغرور،و قد يخلو من كل شئ إلا من شئ واحد،و هو الاهتمام، لأن هذا يمكن أن حبيبا يبغض حبيبه ويؤذيه أو أن حبيبا يتقبل من حبيبه البغض و الإيذاء أو يجتمع الحب والإزدراء في مكان واحد و يصدق أيضا أن الحب يخون أو يقبل الخيانة

من المحبوب، ولكن هذا ليس بممكن أن الحب يبقى في النفس بغيراهتمام فذلك هو المحال الذى يقبل التصديق .

و كذلك الحب من القضاء والقدر وهو يملكنا ولا نملكه فهو يرى أننا لا نحب حين نختار، ولا نختار حين نحب وأننا مع القضاء و القدر حين نولد و حين نحب وحين نموت ،و كذلك يجمع الحب بين اثنين لا يخطر على البال أنهما يجتمعان و يتكرر الحب في حياة الإنسان الواحد حتى ليكون المحبوب اليوم على نقيض المحبوب بالأمس في معظم المزايا و الصفات، ويتقارب البعيدان و يتباعد القريبان ،و يتجدد القلبان بين آونة و أخرى كأنها من طبيعة الجان، والواقع أن العاطفة حرارة ونار و لا فرق بين طبيعة الجان و طبيعة النيران.

خلاصة القول إن الحب عند العقاد عنصر هام وجزء لازم من حياة الإنسان، وهو شعور صادق وإحساس عميق حلو، فهو من القضاء والقدر، يملكنا ولانملكه، وهو عواطف كثيرة و ليس بعاطفة واحدة ومن هنا كان أقوى و أعنف من العواطف التي تواجه النفس على انفراد، ففيه من حنان الأبوة ومن مؤدة الصديق و من يقظة الساهر ومن ضلال الحالم ومن الصدق والوهم ومن الأثرة والإيثار ومن المشيئة والاضطرار ومن الغرور والهوان ومن الرجاء والقنوط ومن اللذة والعذاب ومن البراءة والإثم ومن الفرد الواحد والزوجين المتقابلين واالمجتمع المتعدد والنوع الإنسانى الخالد على مدى الأجيال.

النزعات النفسية للعقاد كما تنعكس من الكتاب

ولد العقاد في أسرة كريمة في بيت رجل ديني كان يؤدى الصلاة ويجلس على سجادة الصلاة من مطلع الفجر إلى ما قبل الإفطار ليتلوسورا خاصة من القران الكريم ويعقبها بتلاوت الدعوات، يجمع الكتب الدينية ويقرأها ويحضر محافل العلماء والأدباء ويقتنع بقلة المال ولايهوى إليه ولايريد أن يجمعه من طريق غير جائز، و كذلك كانت أمه إمرأة دينية تؤدى الصلوات الخمس في أوقاتها وتصوم وتطعم الفقراء والمساكين وتربى أولادها تربية دينية وتصبر على الصمت والاعتكاف وتقصد في النفقة وتدبر أمور البيت تدبيرا صالحا.

إن العقاد ورث من أبويه كل من هذه الخصائل الحميدة والعادات الكريمة والمحاسن العالية. فهو كان رجلا دينيا ومؤمنا كاملا بالعقل والحس والشعور والتجربة، وكذلك كان رجلا متفائلا لم يكن يتشاءم من شئ في حياته مطلقا، فقد كان يريد أن يتمتع بحياته تمتعا كاملا ويستعمل كل لحظاتها ولايضيعها في أشياء تافة، لأن الحياة حياة واحدة وأيامها معدودة فهو يقول " إننى أهوى القرأة والمطالعة وأحب الكتب لأن حياة واحدة لاتكفينى مهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثرمن معدة واحدة، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد ولكنه يزداد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات في عمر واحد ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل وتتضاعف الصورة بين مرأتين"[19].

فلذلك أنه أفدى حياته كلها بقرأة كتب الدين والفلسفة ودواوين الشعراء وسير رجال الدين والعلم والأدب والفتوح، لأن هذه الموضوعات هى أحب الموضوعات عنده وأفضلها، وهى تتلخص في الأنواع الثلاثة على هذا الترتيب الأدبية والفلسفية و العلمية، فهويرى أن هذه الأنواع الثلاثة من الكتب لازم لتثقيف الإنسان وتعرفه جوانب هذا العالم الذى يعيش فيه، فالكتب العلمية تعلمنا الضبط والدقة وتفيدنا المعارف المحدودة التى يشترك فيها جميع الناس، والكتب الأدبية توسع دائرة العطف والشعور وتكشف لنا عن الحياة والجمال، والكتب الفلسفية تنبه البصيرة وملكة الاستقصاء وتتعدى بالقارى من المعلوم إلى المجهول وتنتقل به من الفروع إلى الأصول.

إن العقاد ترك المدرسة بعد حصول التعليم الإبتدائي ولكنه قرأ الكتب والدواوين بنفسه، وصرف كل نقوده في شراء الكتب لأنه كان مولعا بالعلم والمعرفة والحكمة فيهوى إليها حيثما توجد، حصلها من الكتب والدواوين وتراجم العلماء وحضرمحافلهم ومجالسهم، أن الشغف بالكتابة كان موجودا فيه منذ طفولته ثم ازداد هذا الشغف واشتدت الرغبة فيه حينما هيأت له الظروف ونال كلمات التشجيع من كبار العلماء مثل الأستاذ الجليل محمد عبده الذى قال له حينما اطلع على كراسته للإنشاء " ما أجدر هذا أن يكون كاتبا بعد " أنه كان يريد بعمله الصحافي والكتابي أن يخدم الأمة خدمة صادقة ويخرجها من الزيغ والضلال إلى الطريق السوى القويم، فلذا أنه كان لم يبال لنقد ناقد لعمله الذى يعتقد بأنه صحيح صائب فلذلك حدثت عدة معارك بينه وبين العلماء والأدباء

والأمراء والملوك في هذا الصدد حتى أنه تحمل المشاق والمصائب وسجن لتسعة أشهر لنقده على الذات الملكية.

إنه كان يحمل الذهن الناقد فنقد كل ما كان ضد الابتكار والتجدد في مجال السياسة والاجتماع والأدب والفن، أنه حارب الجمود والتعطل والعبودية والاستقلال بأدبه وفنه، ولكن هذا لايعنى أنه ينقد للنقد فقط بل كان يريد الإصلاح ويعمل له ويتفانى في سبيله، إلا أن نقده كان يكون نقدا لاذغا ولايخضع لأحد في الصدق والأمانة فلذلك اتهمه بعض الناس بالأنانية والغرور، فقالوا إن عباس محمود العقاد هو رجل مفرط الكبرياء ورجل مفرط القسوة والجفاء ورجل يعيش بين الكتب ولاييباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ولاسلطان للقلب ولاللعاطفة عليه.

وحقا أن الأمر ليس كذلك أنه رجل مفرط في التواضع، ورجل مفرط في الرحمة واللين، لايعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة ورجل لايفلت لحظة واحدة في ليله ونهاره من سلطان القلب والعاطفة، هو رجل لايمكن له الصبر على منظر مؤلم أو على شكاية ضعيف، كان شديد الحساسية وسريع البكاء، وقع نظره يوما على جلاد يهوى بسوط على ظهر سجين، ثم ينبثق الدم من ظهر الرجل المسكين، فعاد إلى مكانه في السجن باكيا وقلبه يكاد ينفطرشفقة ورحمة ومكث مريضا مدة أسبوع كامل ولم يستطيع النوم ثلاث ليال بأكملها وظلت صورة الدم على ظهر السجن تشاغل عينيه واستمرت أنات الرجل تدوى في أذنيه.

وأنه كان رجلا لايمقت الغطرسة على خلق الله ولذلك أنه حارب الدكتاتوريين والإقطاعيين والإرستقراطيين بكل جد واخلاص ووقعت المعارك العنيفة بينه و بينهم وإن لم تكن بينه وبينهم صلة مكان أو زمان كما حارب هتلر ونابليون وآخرين، لأنه كان يريد الإصلاح ماكان يريد المال والثراء والجاه والشهرة بدل أدبه وفنه ، أنه لم يشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال ولابصغره إلى جانب كبير من كبراء الثراء بل شعر كثيرا بصغرهم حيث يستحقون التصغير، بل هو يحترم الرجل ويمدحه الذى خاض في الحرب وزاد عن الحق والمعرفة والعقيدة، فلذلك أنه يعد تلك الأيام من أجمل أيام حياته التى ارتفعت به إلى مقام فوق المتعة والألم والراحة وفوق المعدات والأكباد والجلود وفوق مطامع النفس التى يغلبها الطمع ويسومها أن تقبل الجميل والقبيح وأن ترضى بالحميد والذميم.

إن عباس محمود العقاد كان مطبوعا على العزلة والانطواء على النفس في أحسن الأحوال وأسوئها على السواء، وكانت له أسباب عميقة يرجع بعضها إلى الوراثة وبعضها إلى الطفولة الباكرة وبعضها إلى تجارب الدنيا التى لاتنسى، ولكن هذا لايعنى أنه كان مصابا بالعقد النفسية التى كانت شائعة بين الكثيرين من أنداده في السن ونظرائه في العمل، أنه كان مائلا إلى الصداقة ويكره العداوة ولكنه لايعرف التوسط في كليهما سواء في ابداء الراى أو العلاقات الشخصية، ولاهو يحمل على رجل إلا إذا اعتقد بأنه يستحق هذه الحملة وإذا حمل على أحد لايتوسط في حملته عليه لأنه كان يرى وجوب الحملة الشديدة العنيفة على الرجل الذى يسئ إلى وطنه وإلى الإنسانية.

إن العقاد كان يحمل قلبا يرفرف بالحب والمحبة إنه كان يحب الطبيعة والفطرة، يحب المزرعات والطرقات والطيور والحيوانات والأرض والسماء كما أنه أحب فتاتين جميلتين ولكنه صدم في حبه ففارق الأولى حذرا من خيانتها وفارقته الثانية لأنانيتها وكرامتها ولكنه مع ذلك يمدح الحب ويكرمه ويحترمه ويعد أغلى الأشياء في حياة الإنسان.

* * *

الفصل الثالث

أهمية الكتاب ظاهرة و باطنة

أهمية الكتاب من حيث اللغة والفن

إن هذا الكتاب هو في الحقيقة مجموعة من المقالات التى كتبها الأستاذ العقاد في مختلف المجلات منها المؤيد واللواءوالوطن والهلال وغيرها فجمعها صديقه طاهر الطناحى في شكل كتاب وأصدره بعد عدة أشهر من وفاته، هكذا يمكن أن يقال إن أخر الأشياء التى كتبها الأستاذ هو هذه المقالات عن حياته الشخصية والنفسية فلذلك نرى فيه كل أسباب يحتاج إليها الفن والأدب العالى.

إن اللغة التى استعملها فيه العقاد فهى لغة سليمة فصيحة بليغة سلسلة لانجد في أى موضع من الكتاب التعقيد اللفظى أوالتعقيد المعنوى، عباراته سهلة، وتراكيبه رائعة قصيرة، والفاظه مختارة والمعانى تأتى في ذهن القاري مسلسلة، أنه فتح كل مقالته بتعريف عنوانها وبعض الأحيان أنه أكد قوله بكلام أديب أو قول فلسفي أو بمثال من الأمثلة الشائعة، ثم بين بفلسفته واعتقاده فى ذلك الباب وماجرى في حياته الشخصية والنفسية واستعمل لذلك صيغة المتكلم الواحد، وأما الأسلوب فهو أسلوب متين رائع متناسق يرفع بقدر الكتاب وقيمته في عيون القارئين والناقدين.

إن هذا الكتاب ليس بكتاب عادي فهو يختلف عما كتبه الكثيرون من رجال الفكر والأدب والاجتماع عن حياتهم، فبعض هولاء العلماء والأدباء والساسة ترجم لحياته في أسلوب تاريخى وبعضهم في صيغة المذكرات أو

ذكريات وآخرون صوروا حياتهم فيما يشبه الاعترافات مع الاكتفاء بالأهم والمهم من الأحداث وأدوارهم فيها، أما هذا الكتاب للعقاد عن نفسه فهو كتاب له طابع جديد في كتابة التراجم،وكتابة العقاد عن نفسه ليست شخصية بحتة ولاسرد الأحداث التي مرت به أو عاش فيها وكان له دور من أدوارها فحسب، بل كتابة باحث عالم وفنان نابغ، تعود النظر في مسائل العلم وقضايا الفن والفكر، وجال في شئون الفلسفة وعلم النفس والأدب والتربية والاجتماع، وتمرس بتجارب الحياة، ومارس حلوها ومرها وخرج منها بخبرة العالم وعبرة المفكر وحكمة الفيلسوف، فإذا كتب عن نفسه تناول ألوانامن المعرفة وعالج ألوانا من التفكير وتعصب كل حادث أو شأن من الشئون بالتعصب العلمى أو التعليل النفسى أو التأمل الفلسفى.

إنه مابين فلسفته الشخصية عن الأشياء فقط بل أتى بالفلسفة العامة المؤكدة الشائعة بين الناس ووضحها بأسلوب رقيق متين، مثل قوله عن النجاح في الحياة "غناك في نفسك، وقيمتك في عملك، وبواعثك أحرى بالعناية من غاياتك، ولاتنتظر من الناس كثيرا تحمده عاقبته بعد كل انتظار"[20]. وقوله عن تجربته في الحياة " كل ما كنت أريده وأطلبه من الحياة لم أبلغه ولاأرى أن أحدا بلغ كل ما طلب ولو كان من أنجح الناجحين"[21]. وقوله عن الحب " إنه بدل من الخلود واندفاع روح إلى روح واندفاع جسد إلى جسد وأنه قضاء وقدر"[22]. وكذلك قوله عن القرأة والمطالعة "ولكنه يزداد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات في عمر واحد ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل وتتضاعف الصورة بين مرأتين"[23].

وقوله عن عرفان النفس " وهل يعرف الإنسان نفسه؟ كلا! بغير تردد فلو أنه عرف نفسه لعرف كل شئ في الأرض والسماء وفي الجهر والخفاء ولم يكتب ذلك لأحد من أبناء الفناء"[24]. هذه الأقوال والأقوال الأخرى المنشورة في كتابه "أنا" تدل دلالة واضحة على تعمقه في شئون الحياة والطبيعة وتنوع فكره وخياله وحسه عن الإنسان والكون، وتجاربه وخبرته العميقة القوية عن الأمور الاجتماعية والفردية وإلمامه وصلته الوطيدة بالفلسفة والحكمة والعلم والمعرفة والأدب والتربية والاجتماع.

وكذلك الكتاب يعطينا صورة ما لحالة مصر السياسية والاجتماعية ونزعة العقاد منها، فهو كان يريد الإصلاح في كل مجال منها، يريد أن يكون الزعماء زعماء الشعب والملة ولايكونوا زعماء القوات الأجنبية وكذلك أن تكون سياستهم مبنية على الصدق والأمانة لاعلى الغش والظلم والخيانة، ويعملوا في سبيل ترقية بلاد مصر وارتفاع مجدها وكرامتها وتحريرها من أيدى الإنجليز الغاشم، ويسعوا لإقامة الأمن والسلام فيها ولتوفير التسهيلات والحياة الكريمة المستقلة للناس وإلا ليس لهم حق أن يتولوا المناصب ويجلسواعلى كراسى الوزارة ويصدروا الأحكام للناس.

وكذلك أنه كان يريد أن يكون المجتمع المصرى مجتمعا صالحا مبنيا على الإسلام وقوانينه ويرجع الناس إلى السلف ولايهربوا خلف المال والجاه والشهرة والشئ الزائف ويتوسعوا في العلم والمعرفة والحكمة ويقوموا ضد كل ظلم وجور وضد كل قوة أجنبية ولايضيعوا أوقاتهم في اللهو واللعب ويتدبروا في الظاهر والباطن بالحس والشعور والعقل والتجربة، أن الكتب التى كتبها

العقاد خير دليل على هذا لأنه اختار ورجال الدين وحياتهم وفلسفاتهم وعقائدهم موضوعا لكتبه وهذه الموضوعات هى أحب الموضوعات عنده، ولذلك أنه ما كتب قصة أو مسرحية أو رواية طول حياته إلا رواية " سارة " التى تروى عن حبه وغرامه مع سارة ومى.

على كل حال أن الكتاب "أنا" يحكى بصيغة المتكلم الواحد عن حياة العقاد الشخصية ويصور حالته النفسية ويبين أحلامه وأطواره وعاداته التى ورثها من أبويه ثم يصور عن إيمانه وحبه وفلسفته عن الحب والحياة ومدى ولوعه بالقرأة والمطالعة والكتابة ومقياس عداوته وصداقته، وكذلك تلك المقائيس والمعائير التى اختارها لحياته الصحافية والاجتماعية والسياسية، والكتاب يقول لنا أيضا ماهى الكتب المفضلة عنده ولماذا هو يهوى القرأة وما هى الكتب التى كانت في مكتبه وغير ذلك من الأشياءالكثيرة،وبتوسط هذا البيان نحن نصل إلى حالة مصر الاجتماعية والسياسية والاقصادية والثقافية التى كانت في ذلك العصر. فالكتاب مفيد جيدا وإضافة جيدة إلى وأنواع الكتب للتراجم والسير الذاتية.

* * *

الهوامش

[1]. عباس محمود العقاد: مقدمة الكتاب " أنا " تقديم : طاهر الطناحى، ص6-7.

[2]. المصدر السابق: ص 8.

[3]. المصدر السابق: ص 8.

[4]. عباس محمود العقاد: " أنا " ص40.

[5]. المصدر المذكور : ص47.

[6]. عباس محمو العقاد : " أنا " ص57.

[7]. المصدر المذكور : ص60.

[8]. المصدر المذكور : ص69.

[9]. عباس محمود العقاد، معاوية بن أبي سفيان في الميزان: ص5.

[10]. مجلة الثقافة، مقال سعد زغلول كما عرفته لكامل سليم ، نقلا عن " لمحات من حياة العقاد " لعامر العقاد، دار الكتاب العربي: ص89.

[11]. عباس محمود العقاد: " أنا " ص93.

[12]. المصدر المذكور : ص102.

[13]. المصدر المذكور: ص85.

[14]. عباس محمود العقاد " أنا " ص128.

[15]. المصدر السابق، ص109.

[16]. المصدر السابق: ص155.

[17]. عباس محمود العقاد: " أنا " تقديم : طاهر الطناحى، ص9.

[18]. المصدر السابق: ص9.

[19]. عباس محمود العقاد، " أنا " ص87.

[20]. عباس محمو العفاد : " أنا " تقديم : طاهر الطناحى ص11.

[21]. المصدر السابق : ص 11.

[22]. المصدر السابق: ص17.

[23]. المصدر السابق: ص87.

[24]. المصدر السابق: ص107.

خاتمة البحث

أحمد الله عزوجل أن أعانني على إتمام هذه الدراسة التحليلية حول الأديب البارز و العبقري العظيم عباس محمود العقاد و سيرته الذاتية بتوجيه كتابه "أنا". كان محور بحثي الأستاذ عباس محمود العقاد، تناولت جوانب متعددة و زوايا شتى من حياته منذ الطفولة و الفتوة و الشباب إلى الكهولة و الشيخوخة و أنفاسه الأخيرة. لاشكّ فيه أن الأستاذ رمز من رموز الأدب اللامعين، و ليس مجرد كاتب أو مؤلف للكتب الكثيرة و لا أحد من المهتمين بالأدب العربي، و ليس مجرد كونه مؤرخا و فلسفيا و عالما مدققا و ناقدا كبيرا، بل هو جميع أولئك، فشخصيته تتسم بالموسوعية و تعدد الاهتمامات الفكرية تتداخل لديه المعارف و الخبرات حيث يصعب أن يدرس جانب من فكره بعيدا عن الجوانب الأخرى. أطنبت الحديث في بحثي هذا عن نزعاته و ميوله و أفكاره و نظرياته و فلسفته و أعماله و أفعاله إلى جانب بيان أسرته و تعليمه و مراحله المتنوعة و الأحداث التي حدثت خلالها و ذلك كله في ضوء كتابه "أنا" الذي قام بجمعه و ترتيبه صديقه الحميم طاهر الطناحي.

كما قلت في المقدمة بأني قد قمت بقراءة هذا الكتاب حرفا حرفا بعد أن تم لي اختيار هذا الموضوع و بفضل هذه الدراسة الجادة و الواعية أصبحت قادراً على أن أصور حياة الأستاذ عباس محمود العقاد تصويراً دقيقاً يوضح ملامح شخصيته و يجسد أطوار حياته و مراحلها. و هذا الكتاب يثير فينا كل معاني الطموح و العجب و الإعجاب بهذا الرجل الذي حقق نجاحاً كبيراً في

حياته، و أحدث ثورة هائلة في الأدب العربي، و حينما ندرس هذا الكتاب نشعر أنه شريط مسلسل لحياته، يعرض الصور ويقرر الآراء في غير افترار و لحظة حازمة و إنه أفضى إلينا ذكريات حياته متعددة الجوانب، و يُرانا أنه أمة في نفسه و شخصيات متعددة في شخصيته الوحيدة الفذة فهو عالم كبير و أديب عملاق و ناقد بارع و فلسفي عظيم وصحفي بارز و مدقق و محقق أصيل و إنسان كامل محنك صقلته تجارب الحياة المريرة صيقلاً، فأصبح ذهبا خالصا و فضة محضةً و هو شخصية ذات الثقافة الواسعة، و رجل مطلع على أسرار الحياة و كنهها و حقائقها، له إلمام واسع بالعلوم الإسلامية و فلسفتها و التاريخ و السير و الأدب واللغات الأجنبية فهو بحر لا ساحل له، حينما يتغوص في شيئ يصل إلى أغواره.

تخلصنا بعد الدراسة الاستعراضية و التحليلية لكتابه "أنا" بأنه من أمتع كتب السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث،و قد انتهج فيه منهجاً يضاهي أحسن مناهج عصرنا الحديث،و هو يعد واحدا من كلاسيكيات أدب السيرة الذاتية في العالم العربي، يمتاز بأسلوبه الرائع و دقته الجميلة في الوصف و البيان،وهوإبداع علمي خالص تمتاز ألفاظه بنعومتها و نصاعتها و سحرها و هو في الحقيقة عرض بسيط لمختلف مراحل حياته و سيرته الفكرية و العلمية و هواياته المفضلة و مناهجه في التأليف و الكتابة، و قد رصد الكتاب بعض الأحداث التاريخية و تاريخ التغيرات السياسية و الاجتماعية و انفتاح الأمة على حضارات الدول الغربية و أسبابها و سبل الخلاص منه، هذا و قد سجل الكاتب فيه ملاحظاته العميقة و الهادفة على مختلف مناحي الحياة و جوانبها و تجاربها

المرة،كان يعتقد بأن الناس صناديق مقفلة و ما مفاتيحها إلا التجارب وخير مدرسة للإنسان تجارب الناس وقد دعم هذه الحقيقة في كتبه العديدة بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة.

و هذا الكتاب مع أنه في السيرة الذاتية يصورلنا البيئة المصرية و قضايا الحياة المختلفة،تناول العقاد فيه موضوع الحياة بالبحث الجاد و الدراسة الإبداعية و لعل لم يعالجها أحد بهذا القدر من التفصيل إنه أوضح معناها بفكرته الثاقبة في أسلوب علمي رصين، فقد قال: "الحياة جديرة بأن نحياها" و فلسفتهاهي "غناك في نفسك و قيمتك في عملك و بواعثك أحرى بالعناية من غاياتك و لا تنتظر من الناس كثيراً" و نظم أبياتاً كثيرة أيضاَ حولها و منها:

قالوا الحياة شقـــاء قلنـــا فأين النعـــيم

إن الحـــياة حيـــاة ففـــارقوا أم أقيموا[1]

إنه قسم الحياة إلى أقسام متعددة إلى الحياة الكريمة و المهينة و المستقلة و المستعبدة و الفنية و الطبيعة وغيرها و بين مزاياها و مساوئها، يترك هذا الكتاب في نفوس القاري أثراً ملموساً فلا يريد أحد أن يتركه إلا بعد انتهائه و لقد شهد و اعترف بهذا الواقع كثير من الأدباء.

هذا و لما كان بحثي حول السيرة الذاتيه و لذا أفردت بابا مستقلا عنها و عالجت فيه قضايا شتى للسيرة الذاتية و حقائقها في اللغة العربية، و توصلت إلى النتيجة بأن هذا الفن قديم في الأدب العربي و ليس من الفنون المستحدثة

---

[1]. عباس محمود العقاد"أنا" ص.171.

كما يظن البعض في عصرنا و رددت عليهم بالشواهد العلمية و أثبت بأن هذا الفن أيضاً من الفنون الأدبية و هو جنس أدبي مستقل و مشارك في نسيج الثقافة العربية الحديثة كالقصة و المسرحية و الشعر بأنواعها المختلفة و بحثت بحثاً مستفيضة في الأدب العربي الحديث.

فها هي محاولة متواضعة أضعها بين أيديكم سائلاً الله المولى القدير أن يجعلها في كفة حسناتي يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

* * *

المراجع والمصادر

1.الدكتور يحي إبراهيم عبد الدايم — الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، الطبعة الأولى، الناشر: دارالنهضة العربية للطباعة، والنشر، بيروت، لبنان1974م.

2. الأستاذ إحسان عباس — فن السيرة، الطبعة الخامسة، الناشر: دارالشروق للنشر والتوزيع، عمان.

3. محمد عبدالغني حسن — التراجم والسير، الطبعة الثالثة، الناشر: القاهرة.

4. نوال السعداوي — أوراقى ... حياتى، الناشر: دارالآداب 2000م.

5. الأستاذ محمد شكري — الخبز الحافي، الناشر: دارالساقى دت.

6. الأستاذ عبد العزيز شرف — أدب السيرة الذاتية، الناشر: مكتبة لبنان.

7. فدوى طوقان — رحلة جبلية رحلة صعبة، طبعة: دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1989م.

8. الدكتور جابر عصفور	بين الرواية والسيرة الذاتية، الناشر: مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.
9. الدكتور طه حسين	الأيام، بأجزائه الثلاثة، الطبعة الثالثة والعشرون، الناشر: دار المعارف بمصر، القاهرة.
10. الدكتور محمد مندور	النقد والنقاد المعاصرون الناشر: دار المطبوعات العربية للنشر والتوزيع.
11. الأستاذ عباس محمود العقاد	أنا، دار الهلال، مصر.
12. حنا الفاخوري	الجامع في تاريخ الأدب العربي (الحديث)، دار الجيل، بيروت. لبنان.
13. عامر العقاد	لمحات عن حياة العقاد، دار الكتاب العربي، مصر.
14. الدكتور شوقي ضيف	الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، مصر.

15. أحمد قبش تاريخ الشعر العربي الحديث، دار الجيل، بيروت، لبنان.

المراجع والمصادر في اللغة الإنجليزية

1. Blanchard, Marc Eli The Critique of Autobiography, Published by: University Oregon.

2. Georg. Misch A History of Autobiography in antiquity, part one, (Translated in English by E.W. Dickes) Published by: University of Chicago Press.

3. William L. Howarth Some principle of Autobiography, Published by: The Johns Hopkins University Press.

4. Thomas Philipp The Autobiography in Modern Arabic Literature and Culture, Published by: Duke University Press.

5. Percival M. Symonds The Autobiography and life of History, Published by: American Educational Research Association.

6. Pike Burton — Time in Autobiography, Published by: University of Oregon.

7. Tetz Rooke — In my childhood: A study of

In my childhood: A study of Arabic Autobiography, Published by: Cambridge University Press.

8. M.M Badawi — A Short History of Modern

Arabic Literature, Published in the United States by Oxford University Press, New York, 1993.

محتويات البحث

	المحتويات	الصفحة
	التقديم	1-4
الباب الأول	**السيرة الذاتية وحقائقها في اللغة العربية**	**5-31**
الفصل الأول	مبدأ السيرة الذاتية	6-16
الفصل الثانى	صلة السيرة الذاتية بالتاريخ	17-18
الفصل الثالث	السيرة الذاتية في الآداب الغربية	19-21
الفصل الرابع	تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث	22-29
	الهوامش	30-31
الباب الثانى	**عباس محمود العقاد: حياته و مساهماته في الأدب العربى**	**32-71**
الفصل الأول	عباس محمود العقاد: حياته وأعماله	33-43
الفصل الثانى	مساهمة العقاد في النقد العربي	44-58
الفصل الثالث	أعمال العقاد وآثاره	59-69
	الهوامش	70-71
الباب الثالث	**نبذة عن حياة العقاد في ضوء الكتاب " أنا"**	**72-102**

الفصل الأول	بيان موجز عن كتاب "أنا"	73-77
الفصل الثانى	مع العقاد في كتابه	78-97
الفصل الثالث	أهمية الكتاب ظاهرة و باطنة	98-101
	الهوامش	102
	الخاتمة	103-106
	المراجع والمصادر	107-112

Abbas Mahmood Al-Aqqad Through His Autobiography "ANA":

An Analytical Study

Dissertation Submitted to the Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment of the requirements for the award of the degree of:

MASTER OF PHILOSOPHY

BY

Md. Amirul Hasan

Under the Supervision of

Dr. Md. Qutbuddin

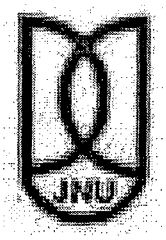

Centre of Arabic and African Studies

School of language, Literature and Culture Studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi-67

India- 2010